



محمد عبد المنعم

٦ اكتوبر
الحرب الإلكترونية الأولى



مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨
مكتبة الأسرة

الأعمال الخاصة



٦ أكتوبر الحرب الإلكترونية الأولى

تأليف: محمد عبدالمنعم



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

٭ أكتوبر الحرب الإلكترونية الأولى

تأليف: محمد عبدالمنعم

الغلاف

الإشراف الفني:

محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦ أكتوبر
الحرب الإلكترونية الأولى

- الدفاعات التي اخترقتها طائراتنا
- إلكترونيات .. وإلكترونيات مضادة
- الثغرة .. ما بين الأرض والسماء
- من ورقة أكتوبر

« لا أقول للجندى : اذهب وحارب .. واعطيه أى سلاح .. كلا .. لا بد أن ازوده بأحدث أنواع السلاح .. بأحدث الأسلحة الالكترونية ، ولابد ان اضعه على أعلى مستوى من العلم بهـا ... حتى نعيش العصر والتحديات التى تواجهنا .. ثم اقول له : اذهب يا ولدى .. وحارب ! » .

الرئيس انور السادات

فى أول مايو عام ١٩٧١

كلمة المؤلف

روبرت هوتز هو أشهر من تولى منصب رئيس تحرير مجلة «افيشن ويك» الأمريكية، وهى أكبر مجلة متخصصة فى عالم الطيران والفضاء، وتعتبر حجة فى كل الأمور المتعلقة بالطيران والصواريخ والاليكترونيات سواء فى مجال الاستخدامات السلمية أو الاستخدامات العسكرية.

وفى يونيو (عام ١٩٧٥) التقيت مع روبرت هوتز بفندق شيراتون بالقاهرة، وكان بصحبته روبرت روبلوسكى مدير مكتب افيشن ويك فى باريس، وكنت أعلم أنهما قد انتهيا من سلسلة من اللقاءات مع كبار المسئولين العسكريين فى مصر، وأنهما زارا معا عديدا من الوحدات والمنشآت العسكرية، وبالطبع كان سؤالى لرئيس تحرير المجلة والضابط السابق بسلاح الطيران الأمريكى الذى حارب فى الصين خلال الحرب العالمية الثانية ضمن سرب «النمور» الشهير - كان سؤالى عن رأيه فى حرب أكتوبر، ورد على هوتز قائلا: «لقد كانت حرب أكتوبر هى أول حرب اليكترونية وأرقى حرب فى التاريخ من حيث الدرجة الفنية والأساليب العلمية التى استخدمت فيها».

وبالطبع ـ ولأسباب شخصية ـ فقد شعرت برضاء وارتياح تام من هذه الاجابة، فقد كان هذا بالضبط هو عنوان كتابى الموجود بين يدى القارىء الآن بطبعته الجديدة، والذى خرجت طبعته الأولى فى أكتوبر ١٩٧٤ من خلال مركز الدراسات الاستراتيجية للأهرام تتصدره مقدمة للراحل العظيم الأستاذ أحمد بهاء الدين الذى كان رئيسا لتحرير الأهرام فى ذلك الوقت، وصدرت الطبعة الثانية فى عام ١٩٧٥ عن طريق الهيئة العامة للكتاب، وقد نفدت كل الطبعات فور صدورها. ولقد شعرت بسعادة أكبر ـ وبدهشة في نفس الوقت عندما قال لي هوتز ان مختلف الدوائر الأجنبية أجمعت على أن المصريين يتمتعون بمهارة مرموقة فى مجال الاليكترونيات: هذا الحقل المعقد الذى كان له تأثير السحر فى مختلف أفرع العلوم المدنية والعسكرية.

وأضاف الرجل قائلا ان جميع الدوائر الأجنبية ـ وهو معها ـ يتساءلون عن سر هذه الظاهرة الغريبة، وكان جادا فى تساؤله، بل إنه وجه إلى السؤال مباشرة: هل لديك أنت تفسير لذلك؟

وفى الحقيقة أن هذه المعلومة كانت جديدة تماما بالنسبة لى، فلم أكن أتصور أننا ـ ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه ـ نستطيع أن نبزغ بهذه الصورة فى واحد من أعقد مجالات التكنولوجيا الحديثة، وأن هناك من يراقبنا بشغف ودهشة.. وسكت قليلا وبعد مهلة من التفكير قلت له: «لعل السبب وراء ذلك هو أن كل مصرى وراءه ٧ آلاف سنة من الحضارة والخبرة فى الحياة».

ولكنه رد على ضاحكا: «ان الفراعنة لم يعرفوا شيئا عن الاليكترونيات».. ولم أستطع طبعا أن أقدم أى تفسير مقبول لهذه الظاهرة الغريبة التى اكتشفها الأجانب عنا، فالأمر فى ذلك يحتاج إلى إعادة اكتشاف أنفسنا وهو دور علماء التاريخ

والاجتماع وعلم النفس.. وآخرين لسنا منهم.

على أن الثمرة الثانية التي خرجت بها من هذا اللقاء، هي أنني لم أذكر في الطبعة الأولى من هذا الكتاب لماذا كانت حرب أكتوبر هي أول حرب اليكترونية في التاريخ، لقد قلت أنها الأولى ولكن لم أذكر لماذا؟

ولذلك فانني أنتهز فرصة الطبعة الجديدة لأقول: صحيح أن الاليكترونيات استخدمت بواسطة السوفيت عندما اقتحموا الأراضي التشيكوسلوفاكية واستطاعوا بواسطة الوسائل الاليكترونية، أن يشلوا تماما شبكة الانذار لحلف الأطلنطي، وحققوا مفاجأة تامه للجميع بعد أن نجحوا في تعمية جميع أجهزة الرادار والاستطلاع المحيطة بهم.

وصحيح أيضا أن الأمريكيين استخدموا أساليب مختلفة للحرب الاليكترونية أثناء القتال الطويل الدامي في جنوب شرق آسيا، ولكن في كلتا الحالتين فان استخدام أساليب الحرب الاليكترونية كان من جانب واحد، أما في حرب أكتوبر فقد اشترك جانبي الصراع في هذه المباراة العلمية المعقدة، فكانت هناك اجراءات اليكترونية من جانب، واجراءات مضادة من الجانب الآخر، واستخدمت في ذلك وسائل وأساليب لم تكن الولايات المتحدة نفسها قد استخدمتها بعد، ومازال معظمها حتى الآن في طي الكتمان، من هنا كانت حرب أكتوبر هي أول حرب اليكترونية بالمعنى الصحيح.

وانني اذ أذكر هذا اللقاء الآن، فانما لأبرهن على صحة وجهة نظري التي تضمنها هذا الكتاب، خاصة وأن التأكيد جاء على لسان خبير أجنبي يعرف الكثير بحكم منصبه، وبحكم صلاته بكبار المسئولين في مختلف أنحاء العالم، ولقد نشرت «الأفييشن ويك» سلسلة من الدراسات عن حرب أكتوبر أشادت فيها

بالمجهودات المختلفة للمصريين فى هذا المجال، والمرء لا يملك أخيرا الا أن يقدم احترامه لهؤلاء الكتاب الذين يعلمون الكثير عن ما يكتبون عنه، وعندما تتاح لهم فرصة الاطلاع على الحقائق، فانهم يقدمونها لقرائهم بصراحة ووضوح بعيدا عن أى زيف أو أهواء، ولكن الغريب أن الزيف يأتى من عندنا نحن من خلال من يشعرون بالغيرة من كل عظيم، وكل عمل ناجح، وفى هذا المضمون مازالت الغيرة تنهش سيرة الزعيم الراحل أنور السادات الذى قاد هذه الحرب العظيمة، ومازالت الغيرة تحرق قلوب أرباب الأيديولوجيات التى اندثرت بسبب الأحداث الهائلة التى توالت خلال العقود الثلاثة الأخيرة!! من القرن العشرين.. وكان بدايتها، وأهمها، حرب اكتوبر ١٩٧٣.

محمد عبد المنعم

أكتوبر ورمضان

● اكتوبر ورمضـــان

كان يوما من أجمل وأنبل الأيام التي عرفتها مصر ، صدر القرار بالنسبة له في ابريل عام ١٩٧٣ ، ثم كان أن تضافرت عدة عوامل علمية وعسكرية وسياسية لتؤرخه بالسادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ميلاديا وتباركه بالعاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هجريا . في هذا اليوم وفي القصر الجمهوري بالجيزة استقبل الرئيس أنور السادات الفريق أول أحمد إسماعيل (*) وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة ومعا ــ وكثيرا ما كانا معا طوال الأيام البطيئة القاتلة فيما قبل ٦ أكتوبر ــ اتجها الى مركز القيادة الرئيسي للقوات المسلحة .

هناك كان في استقبالهما اللواء حسن الجريدلي ، سكرتير وزارة الحربية الذي قدم للرئيس السادات وثيقة القتال قائلا : « بالنصر ان شاء الله يا فندم . وبهدوء تام قام الرئيس السادات بتوقيع الوثيقة ثم دخل غرفة ادارة العمليات تاركا مرافقيه وقد فهموا لأول مرة ماذا كان يدور بخاطر الرئيس المصري . وبداخل الغرفة قام اللواء محمد عبد الغني الجمسي

(*) جميع الرتب والوظائف يرد ذكرها في هذا الكتاب كما كانت عليه خلال فترة الحرب .

رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ، بفتح خزائن الوثائق السرية واخرج منها ـ لأول مرة ـ خرائط العملية « بدر » وبدأ الصراع فى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهرهذا اليوم ، وبعد استعدادات هائلة لم تنقطع طوال ٦ سنوات ، كان كل طرف خـلالها يعد قواته ويجهزها لتحقيق الهدف الرئيسي الذى حدده لنفسه » ٠

واغرورقت عيناه بالدموع

كان هدف القوات المصرية فى مرحلته الأولى هو العبور الى الضفة الشرقية للقناة واجتياح خط بارليف وتحطيم القوة العسكرية الاسرائيلية. أما بالنسبة للجانب الاسرائيلي فقد كان الهدف هو دحر القوات المصرية بصفة خاصة والحاق أكبر خسائر ممكنة فى المعدات والأفراد بها أثناء مرحلة العبور الحرجة وذلك تحطيما لارادة الأمة العربية كلها وفرض سيادة اسرائيل على المنطقة بصورة نهائية ، وكما أجمع كل الخبراء العسكريين كان الهدف سهل التحقيق بالنسبة للجانب الاسرائيلي وشبه مستحيل بالنسبة للجانب العربي ، ودار القتال ليؤكد عكس ما توقعه الخبراء العالميون تماما ويرجع ذلك الى عاملين :

- الانطباع القاتم عن المقاتل المصرى بعد حرب ١٩٦٧ ٠
- المعدن الحقيقى لهذا المقاتل كما كشفت عنه حرب ١٩٧٣ ، وكانت الفجوة شاسعة بين الحقيقة والانطباع السابق وبالحد الذى ضلل أكفأ المحللين والخبراء العسكريين ٠

وبعد ١٧ دقيقة بالضبط من بدء القتال تلقى مركز القيادة الرئيسى للقوات المسلحة اشارة تفيد بأن اللواء السابع مشاة ميكانيكى نجح فى عبور القناة بكامل أسلحته وأفراده ، وصاح الضباط الموجودون بهذا المركز هاتفين : « الله أكبر » « الله أكبر » دون علم منهم بأن نفس هذه الصيحة كانت فى نفس هذا الوقت تهدر على طول الجبهة فى القناة ٠٠ وعندئذ نظر اليهم الرئيس السادات بكل الفرحة ، والأبوة ، والحنان ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع وخاطبهم قائلا : « ربنا يتمم بخير يا أولادى » ٠٠٠ ويجدر بنا الآن أن نبدأ القصة من أولها :

الأسرار في مهدها

● الأسرار في مهدها

في يوم ٢٧ اغسطس ١٩٧٣ ألقى الفريق أول أحمد اسماعيل كلمة بمناسبة تخريج دفعة جديدة من كلية الضباط الاحتياط ، وكانت نبرة وزير الحربية المصرى مختلفة تماما ، واقصد بذلك الطريقة نفسها التى ألقى بها الوزير كلمته وهو امر لا تكشف عنه الدراسات أو التحليلات ويستحيل على أى مترجم مهما بلغت كفاءته أن ينقل بأمانة ما تعنيه هذه الكلمات ، قال الفريق أول أحمد اسماعيل : « ان العدو لن يستطيع مهما بالغ فى الحرب النفسية علينا أن ينال من قدرتنا على التصدى له فى معركة شرسة وطويلة تكيل له الصاع صاعين ·· الجريح منا بجريحين منه والشهيد منا بقتيلين منه » ·

وعندما نطق هذه الجملة الأخيرة ـ وكنت حاضرا بنفسى فى هذا الاحتفال وحضرت معه جميع الاحتفالات السابقة ـ غمرنى احساس قوى بأن مصر قررت أن تسلك طريق المعركة · وقد صرح وزير الحربية بذلك فيما بعد خلال حديثه مع الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقال ان القرار كان قد تم اتخاذه فيما بينه وبين الرئيس أنور السادات وكانا معا يقومان بالعد التنازلى « ى » (أو يوم) ناقص ٣٠ ثم ى ـ ٢٩

ثم ى ـ ٢٨ ، حتى وصلا الى « ى » فقط التى كانت يوم ٦ أكتوبر كما عرفنا فيما بعد ٠

وفى مرحلة معينة قام القائد العام بابلاغ قادة القوات المسلحة وكبار الضباط بالقرار الخطير وبشكل هرمى من القمة الى القاعدة وذلك قبل أيام قليلة من ٦ أكتوبر وفى أضيق النطاق حتى يتحرك جهاز القوات المسلحة استعدادا لهذا العمل ، ومع ذلك ، وبعد أن اكتملت هذه الاستعدادات ، لم يكن هناك من يعلم بقرار الحرب غيرهم ، أما الضباط الآخرون الذين كانوا بحكم وظائفهم الكبيرة يشتركون بطريقة أو بأخرى فى التجهيز والاعداد فقد كانوا غير متأكدين عما اذا كانت الخطوة القادمة هى حرب حقيقية أو أنها مجرد مناورات عادية ٠

كان الشعار خلال هذه المرحلة « يجب ألا يعرف العدو بنوايانا » الأمر الذى يكاد أن يكون مستحيلا للأسباب الآتية :

- هناك قوات احتياطية ضخمة من الضباط والجنود يلزم استدعاؤها قبل بدء العمليات ويستلزم ذلك ابلاغهم فى منازلهم وجهات عملهم ، وبالطبع فانه خلال ساعات معدودة ستكون الدولة كلها قد علمت بالنبأ ٠
- طبيعة البعض منا فى المباهاة بمعرفة الأسرار العميقة وسردها بلا مبالاة فى كل مناسبة ٠
- هناك قوات ضخمة ستتحرك لتأخذ مواقعها على الجبهة قبل يوم ٦ أكتوبر ٠
- هناك معدات مختلفة ـ وبصفة خاصة معدات العبور ـ ستتحرك الى الجبهة ومغزى وجودها واضح لن يخفى على العدو استنتاجه ٠
- ينبغى رفع حالات استعداد القوات المسلحة والغاء الأجازات والفرق التعليمية وهى بادرة أخرى من بوادر الحرب الوشيكة لن يصعب على العدو معرفتها ٠

- هناك وسائل الاستطلاع الجوي الاسرائيلي وأبراج المراقبة ونقط الملاحظة على الضفة الشرقية من القناة بالاضافة الى مراكز التصنت والاستطلاع الاليكتروني وكلها تركز جهودها ليلا ونهارا بحيث تتفادى اية مفاجأة من جانبنا ٠
- هناك اقمار التجسس الأمريكية ومراكز التصنت والتجسس الاليكتروني الأخرى المنتشرة في حزام كثيف حول المنطقة بأكملها لن يخفى عنها حل ألغاز هذه التحركات والاستعدادات ٠
- لنا جبهة أخرى شمالا في سوريا ستتبع بدورها نفس الاجراءات والاستعدادات الأمر الذي يخرج هذا النشاط عن الحيز الاقليمي او المحلي في مصر وحدها ويخرج عن قدرة أية اجراءات للسرية او الأمن ٠

وجاء الحل بسيطا للغاية ــ ويبدو فعلا أن البساطة هي سر النجاح كما ذكر احد رجال الكونجرس الأمريكي الذين زاروا مصر بعد وقف اطلاق النيران ــ فقد تم اجراء جميع هذه البنود علانية تحت ستار اجراء «مشروع تدريبي تعبوي» (مناورة ضخمة) على مستوى القوات المسلحة المصرية والسورية ، وتسرب هذا النبأ فيما بين وحدات القوات المسلحة وبالتالي تسرب النبأ ــ عن قصد ــ الى خارج صفوف القوات المسلحة للاجابة على تساؤلات العدو عن استعداداتنا وتحركاتنا غير العادية ٠

وعن تسريب الأنباء عن عمد ، حدث في نفس الفترة أن كنت في أحد المكاتب العسكرية واذا بالضباط الذين أجلس معهم يتكلمون امامي على قرار جديد لوزير الحربية يسمح لضباط وأفراد القوات المسلحة بأداء فريضة العمرة هذا العام ، وبالطبع فانني كصحفي التقطت الخبر من حديثهم العارض وطلبت التصريح بنشره فوافقوا وعلى أساس أنه خبر «للأهرام» فقط ، وبعد ذلك عرفت أن العملية كلها كانت مقصودة ومدبرة لتضليل العدو خلال فترة الاستعداد الحقيقي للحرب ٠

وفي نفس الوقت أيضا تسربت انباء الى الخارج تقول ان الرئيس

السادات ينوى خلال شهر أكتوبر قضاء فترة للاستشفاء فى الخارج ، وأنه يعاود الذهاب الى استراحة برج العرب لأنه يشعر بارهاق خلال الآونة الأخيرة من أعباء الحكم والقضايا الكثيرة المطروحة امامه (وكان فى الحقيقة يعد اللمسات الأخيرة للقتال) ٠

وفى ٢٥ سبتمبر أعلن رسميا أن الفريق أول أحمد اسماعيل أمضى يومين فى المواقع الأمامية بجبهة القناة متفقدا القوات ، أثناء قيامها بتنفيذ بعض المشروعات التدريبية والبيانات العملية وأنه ناقش الضباط والجنود فى مهامهم التدريبية مؤكدا على ضرورة استمرار التدريب وذلـــك لرفع الكفاءة القتالية لكافة المستويات فى القوات المسلحة ، وكانت هذه الرسالة موجهة رأسا الى العدو الاسرائيلى ٠

وفى هذه الأثناء كان الضباط والجنود يتدربون على خطة الهجـــوم الحقيقية على أنها تدريبات روتينية دون أن يعلموا أن ما كانوا يقومون به وقتذاك هو نفسه الواجب المطلوب منهم فى « معركة التحرير » ، ووصل الأمر الى أن الضباط الطيارين المصريين نفذوا الضربة الجوية الأولى ضـد أهداف ومطارات العدو الحيوية فى سيناء وعادوا الى مطاراتهم دون أن يعلم الاداريون والفنيون فى هذه المطارات ــ والذين قاموا بأنفسهم باعداد تلك الطائرات قبل الاقلاع ــ أن الحرب قد بدأت وأن العدو تلقى ضربة قاضية لأول مرة فى تاريخ النزاع العربى الاسرائيلى ٠

واكثر من ذلك أن العاملين فى مركز القيادة الرئيسى لقوات الدفاع الجوى ــ وهى الجهة التى ستشعر حتما ببدء الهجوم الجـــوى ــ كانوا يجلسون فى أماكنهم وقد حجبت عنهم الصورة الكاملة عن الموقف بسبب الاجراءات الصارمة التى اتخذها اللواء محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى لمنع تسرب أنباء هذه الضربة قبل انجازها ، وعندما أبلغ أحدهم أن بعض طائراتنا قد دخلت سيناء بالفعل رد عليه قائد الدفاع الجـوى ضاحكا أن هناك ٢٠٠ طائرة مصرية تضرب أهداف العدو فى سيناء منذ ٣٠ دقيقة ثم أضاف الرجل بهدوء صارم : « الآن يجئ دورنا ستثور ثائرة

السلاح الجوى الاسرائيلى وعلى قدر ما تنزل به من خسائر يتوقف نجاح العملية بأكملها » .

وفى مركز قيادة القوات الجوية المشيد تحت سطح الأرض فى مكان ما بالصحراء كان اللواء طيار حسنى مبارك قائد القوات الجوية ومعه طاقم قيادته ينظرون الى الخرائط المضاءة أمامهم والتى تبين صورة الموقف الجوى فى المنطقة . ينتظرون عـــودة الطائرات فى لهفة وعيونهم على الخرائط والساعات يعدون الدقائق والثوانى - وعادت الطائرات وبدأت أجهزة التليفونات العديدة الموجودة بمركز قيادة القوات الجوية ترن مسعورة تبلغ عن الطائرات التى عادت سالمة وبدأت عمليات التتميم «والعد» فاذا بالنجاح الذى فاق كل التوقعات ، لقد عادت جميع طائراتنا سالمة فيما عدا طائرة واحدة ، كيف حدث ذلك ؟ انهم حينما هاجمونا فى يونيو ١٩٦٧ كانت خسائرهم أكثر من هذا بكثير ، ورغم ذلك أقاموا الدنيا وأقعدوها على النجاح الساحق الذى حققوه حينذاك . والآن وبعد استعداد دام ٦ سنوات زودتهم خلالها الولايات المتحدة بأعقد المعدات الاليكترونية فى مجـــال الدفاع الجوى ، كانت ضربتنا الجوية أنجح بكثير من ضربتهم فى عـــام ١٩٦٧ ، لا لشيء إلا بفضل التدريب الهائل والروح التى بثها اللواء طيار حسنى مبارك فى نفوس رجال القوات الجوية، وهو رجل اشتهر على مر سنوات عمره أنه لا يعرف الهزيمة ولا يرضى بغير النصر فى جميع المجالات.. شيء واحد عكر مزاجه فى هذا اليوم العظيم وهو أن النقيب طيار عاطف السادات استشهد خلال اليوم الأول من القتال، وعندما علم حسنى مبارك بذلك قرر عدم إبلاغ الرئيس السادات عن استشهاد أصغر اشقائه حتى لا يؤثر على قراراته المتوقعة، وحتى نتصور حجم النجاح الحقيقى لهذه الضربة يجدر بنا أن نلقى نظرة معا عن نظام الدفاع الجوى فى اسرائيل.

الدفاعات التى اخترقتها طائراتنا

● الدفاعات التى اخترقتها طائراتنا

تخضع اسرائيل لظروف سياسية تجعلها فى عزلة تامة عن العالم العربى الذى تقع فى وسطه مباشرة ومع ذلك فان هذه العزلة ، ولو كان لها مساوىء كثيرة ، تجعل الطرف المعزول ينظر ويفكر كثيرا ويدبر مستفيدا من دوره كمتفرج عن قرب ، واذا كانت العلاقة التى تربطه بجيرانه يشوبها العداء والتحفز فان الطرف المعزول يصبح اشد عداء وأكثر تحفزا ويعنى عناية كبيرة بالاخطار التى تتهدده .

كذلك فانه لو كان الطرف المعزول أقل عددا ويشغل مساحة اقل من الأراضى فان تحفزه يصل الى أقصى درجة ويصيبه نوع من الحساسية ازاء هذه الأراضى الشاسعة وطوفان البشر الذى يحيط به من كل الجوانب، وينعكس هذا بصورة واضحة فى كفاءته الدفاعية وبصورة أوضح فى نظام دفاعه الجوى على اعتبار ان أى هجوم جوى ناجح من جانب أعدائه معناه تدفق القوات البرية لهذا الطوفان الهائل من البشر الذى يمقت الاحتلال الاسرائيلى الجاثم على صدورنا بما يشكله من تحد مهين لهذه الأمة بأسرها .

من هنا كان تركيز اسرائيل على نظام دفاعها الجوى تركيزا شديدا

(ولو ان هذا الجهاز لم يكن قد تم اختباره من جانبنا بصورة فعالة حتي ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وساعدها فى ذلك هذا التحفز والترقب الذى يكمن فى شعب اسرائيل بأكمله على مستويين :

- كونهم فى الماضى والحاضر والمستقبل طائفة دينية تمثل أقلية ضئيلة سعت فى شتى العصور الى السيطرة بما يفوق حجمها فى أى مكان تتواجد فيه ٠
- كونهم اغتصبوا كثيرا من الأراضى العربية بما أصبح يجسم لباقى الدول العربية أخطار الوجود الاسرائيلى وأطماعه المستقبلة ٠

فكرة عامــة

ويجدر بنا قبل أن نسترسل فى تناول نظام الدفاع الجوى الاسرائيلى أن نحيط بفكرة عامة عن هذا النظام فى العالم كله ، ان هذا الجهـاز (أو النظام) المتكامل يشبه الى حد بعيد الوظائف التى يقوم بها جسم الانسان ، فهو عبارة عن عين ترى (الرادار) وعقل يفكر (أطقم من العسكريين الذين يتمتعون بخبرات عالية ويحتشدون فى مراكز عمليات الدفاع الجوى ، وقد تطور الأمر فى الآونة الأخيرة وأصبحت العقول الأليكترونية هى التى تقوم بمهمة التفكير) وأيد تضرب (المقاتلات الاعتراضية والصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات) وأعصاب (أجهزة المواصلات السلكية واللاسلكية المختلفة) تربط بين هـذه العناصر المتباينة ٠

وينقسم الدفاع الجوي الى ٣ أقسام :

١ ــ دفاع جوى ايجابي ويقصد به مجموعة الاجراءات التى تقوم بها قوات الدفاع الجوى لتدمير وسائل الهجوم الجوي للعدو قبل وصولها الى أهدافها ٠

٢ ــ دفاع جوى سلبى ويقصد به مجموعة الاجراءات التى تتخذها القوات المسلحة لتقليل نسبة الخسائر وتضليل العدو اذا ما نجح فى

اختراق المجال الجوى (عمليات الاخفاء والتمويه للأهداف الحيوية وعمليات المناورة بالقوات وتغيير أماكنها وعمليات التوزيع والانتشار للقوات «بمعنى عدم وضع كل البيض فى سلة واحدة » .

٣ ـ دفاع جوى مدنى ويقصد به مجموعة الاجراءات التى تقوم بها السلطات لتقليل نسبة الخسائر بين المدنيين والأهداف المدنية (الاطفاء ، الاسعاف ، الاخلاء ، ازالة القنابل وبناء المخابىء ، مد واصلاح شبكات المياه والمجارى والكهرباء ... الخ) .

وقد ظهرت الحاجة لجهاز الدفاع الجوى بمجرد ظهور الطائرات واستخدامها فى مجال الحرب فقد كانت الطائرات منذ ظهورها بعيدة المنال وتحدث نسبة هائلة فى الخسائر الأمر الذى جعلها ـ وما زالت ـ سلاحا فعالا ، ومن هنا كان لدى كفاءة جهاز الدفاع الجوى تأثير حيوى على سير المعركة وما تسفر عنه من نتائج ، وعلى سبيل المثال فان نجاح بريطانيا فى اختراع جهاز الرادار واستخدامها له ابان الحرب العالمية الثانية كان له تأثير كبير على ما سمى « بمعركة بريطانيا » وصمود هذا العدد القليل من طيارى المقاتلات البريطانيين أمام الأسراب الضخمة العديدة من طائرات النــازى .

ونستطيع القول أن سلاح الطيران الملكى البريطانى استطاع الصمود أمام الهجوم الجوى الألمانى بفضل هذا الجهاز البسيط ـ نقصد الرادار ـ الذى كان يرى الطائرات الألمانية قبل وصولها للسواحل البريطانية وبناء على ذلك تصدر أوامر الاقلاع للمقاتلات البريطانية ويتم توجيهها ـ أيضا ـ بواسطة الرادار لتأتى فى مؤخرة الطائرات الألمانية وتصيبها بسهولة بين دهشة الطيارين الألمــان .

وتعتبر الخمسينات علامة بارزة فى تاريخ الحرب الجــوية عندما اتجهت دول العالم الى انتاج المقاتلات والقاذفات المقاتلة التى تحلق على ارتفاعات منخفضة بدلا من القــاذفات الثقيلة الضخمة التى تحلق على ارتفاعات عالية فيسهل كشفها بواسطة أجهزة الرادار وبالتالى تدميرها قبل وصولها الى الأهداف التى تريد مهاجمتها .

ويرجع ذلك ـ فى المرتبة الأولى ـ الى التجربة التى خاضتها القوات الجوية خـــلال الحرب العالمية الثانية فقد كانت قاذفات القنابل عندئذ ضخمة الحجم ومصممة بحيث تعمل على ارتفاعات تصل فى المتوسط الى ستة كيلو مترات حتى تتجنب الاصابة بنيران المدفعية المضادة للطائرات ، ورغم ذلك فقد كانت خسائر القوات الجوية جسيمة ٠

ثم بدأ العالم فى انتاج صواريخ أرض ـ جو (مضادة للطائرات) التى تحقق نسبة عالية جدا من الاصابة وذلك بجانب انتاج طائرات مقاتلة (المقاتلات الاعتراضية) تقتصر مهامها على اعتراض خط سير الطائرات المغيرة وتدميرها قبل وصولها الى أهدافها وذلك بمساعدة أجهزة الرادار الأرضية التى تقوم بالكشف عن طائرات الخصم وتتبعها ٠

ونعود الآن الى الدفاع الجوى الاسرائيلى ، ان اسرائيل تبلغ مساحتها ٧٩٧٨ ميلا مربعا (فى حين أن مساحة مصر وحدها ٣٨٦ ألف ميل مربع) ومعنى ذلك أنها لا تحتاج الا لعدد قليل من محطات الرادار لخلق حقل رادارى يكفل لها تغطية محكمة لمجالها الجوى بأكمله ، ومعنى وجود عدد قليل من محطات الرادار أن كمية المعلومات والبيانات التى تجمعها هذه المحطات تكون ذات نسبة معقولة يسهل حصرها والتعرف عليها الأمر الذى يؤثر تأثيرا كبيرا على كفاءة جهاز التمييز والتعرف على الطائرات وتحديد المعادى منها والصديق ٠

وجدير بالذكر أن مشكلة ضيق الأراضى وعدم وجود عمق كاف لا تمثل عائقا فيما يختص بعمليات الدفاع الجوى وذلك لأن السـماء مفتوحة وتقوم أجهزة الرادار فى جميع دول العالم بتغطية مناطق شاسعة من أراضى الدول الأخرى (تصل الى العالم بأجمعه فى حالة أجهزة الانذار السوفيتية والأمريكية) ومن ثم فان شبكات الرادار الاسرائيلية تغطى مساحات شاسعة من الأراضى العربية وبذلك يتسنى لها اكتشاف وسائل الهجوم الجوى من على مسافات بعيدة ٠

وكانت نقطة الضعف فى هذا المجال أن اسرائيل كانت تلجـأ الى اطلاق مقاتلاتها فى الجو قبل أن تتوغل أية طائرة داخل خطوطها وذلك

حتى يمكنها اعتراض هذه الطائرات بالقرب من هذه الخطوط وليس داخلها (لأن ضآلة حجمها لا تسمح باتمام عملية الاعتراض اذا ما انتظرت اختراق الطائرات المهاجمة لخطوطها) وعلى سبيل المثال كانت اسرائيل تطلق مقاتلاتها فى الجو بمجرد عبور الطائرات المصرية لمنطقة العريش ـ قبل حرب يونيو ١٩٦٧ ـ وفى كثير من الأحيان كانت هذه المقاتلات تنطلق دون جدوى لقيام الطائرات المصرية فى أغلب هذه الأحيان بمجرد تدريبات عادية داخل أراضيها ، ومن هنا كانت مثل هذه الحالات تعتبر شغلا شاغلا للمقاتلات الاسرائيلية ووسائل الدفاع الجوى الاسرائيلي ، ولكن فى مقابل هذا نجد أنه من الخواص الأخرى لنظام الدفاع الجوى الاسرائيلي أنه رغم وجود كثافة كبيرة من الطائرات المدنية القادمة والراحلة والمارة فوق الأراضى الاسرائيلية فان ذلك لا يزيد من الضغط على شبكة الرادار الاسرائيلية أو يسبب « تشبيعها » بأهداف كثيرة تزيد من المجهودات اللازمة لعملية التمييز والتعرف على تلك الطائرات ومعرفة ما اذا كان بينها طائرات معادية ، وهى فى ذلك تختلف كثيرا عن جمهورية مصر العربية التى تعتبر ملتقى للممرات الهوائية ويمر بسمائها عدد كبير من الطائرات المدنية تشكل عبئا كبيرا على شبكة الرادار المصرية وتستنفد عملية تأمينها مجهودات ضخمة ٠

امكانيات الكشف الرادارى الاسرائيلى :

أما من ناحية العلاقة بين امكانيات الكشف الرادارى عامة والطبيعة الجغرافية للأراضى الاسرائيلية فليس هناك عوائق طبيعية فى اسرائيل تعوق تحقيق كشف رادارى جيد ، وعلى العكس من ذلك فان المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية من اسرائيل عبارة عن منطقة صحراوية تغطى نصف مساحة اسرائيل تقريبا وتسمح بتحقيق كشف رادارى جيد (لعدم وجود عوائق طبيعية مثل الجبال والمنخفضات ٠٠٠ الخ أو منطقة أهداف ثابتة تعوق الكشف الجيد وخاصة على الارتفاعات المنخفضة) ٠

ويعنى ذلك أن اسرائيل بطبيعتها تحقق كشفا راداريا محكما فى الاتجاه الغربى والجنوبى الغربى (أى اتجاه الأراضى المصرية) ومن ناحية

أخرى فان الجزء الغربى من شـــمال اسرائيل يطل على البحر الأبيض المتوسط أى أنه عبارة عن منطقة ساحلية (هناك سهل ساحلى يمتد من حيفا فى الشمال حتى غزة فى الجنوب) ومن المبادىء المعروفة جيدا أن محطات الرادار التى تقام فوق مناطق ساحلية تحقق كشفا جيدا فى اتجاه البحر الذى يستوى سطحه أمام أشعة الرادار والذى يخلو من أى عوائق تحول دون الكشف الجيد وبصفة خاصة ـ مرة أخرى ـ على الارتفاعات المنخفضة ٠

اما من ناحية الشرق والشمال فالأمر وان اختلف طبوغرافيا لوجود سلسلة من المرتفعات تفصـــل بين الأردن واسرائيل من ناحية الشرق ، وفى الشمال تمتد سلسلة التلال اللبنانية وكلاهما يشـــكل عائقا أمام الكشف الرادارى الجيد بالنسبة لاسرائيل ، الا أن وضع الأجهزة فـوق المرتفعات مع امكان اعاشتها هناك يوفر لاسرائيل القدرة على التغلب على هذا العائق ٠

ولكى لا تكون هناك فجوات فى نظام الكشف عن الطائرات التى قد تهاجم اسرائيل تم استكمال شبكة الرادار والانذار بشبكة محكمة « لنظام المراقبة بالنظر » وهو نظام عتيق كانت مختلف الدول ، ومن بينها مصر ، تلجأ لاستخدامه قبل اكتشاف الرادار ، وفى الأيام الأولى من بدء اشتراك الطائرات فى المعارك الحربية ، وهو نظام مبسط للغاية يضم عـــددا من المواقع تنتشر حول حدود الدولة ويوجد بكل موقع عدة أفراد (يمـكن الاعتماد على فرد واحد) لمراقبة السماء بأعينهم المجردة ونظارات الميدان والتبليغ عن أية طائرات يشاهدونها مع تحديد عددها واتجاهها وارتفاعها على وجه التقريب ٠

وقد يعجب القارىء لاستخدام هذه الوسيلة فى عصر الصــــواريخ والاليكترونيات ، على أن التجارب الأخيرة أثبتت الفائدة البالغة التى يوفرها هذا النظام وذلك لسببين جوهريين :

١ ـ ان العمليـــات الجوية الحديثة تكاد تتركز على الارتفـاعات المنخفضة لأن تحليق الطائرات على ارتفاعات عالية يسهل كشفها بواسطة

أجهزة رادار الخصم ويحقق قدرا كبيرا من الانذار المبكر مما يمكن المقاتلات الاعتراضية للجانب المدافع من اعتراض الهدف المغير قبـــل ـ أو عند ـ حدود الدولة المدافعة ، أما بالنسبة للطائرات التى تغير على ارتفـــاعات منخفضة (عدة أمتار) فان الرادار لا يكشف عنها بسبب انحناء القشرة الأرضية ووجود المعالم الأرضية التى تحجب الرؤية على هـذا الارتفـــاع (الجبال والأشجار والمباني العالية ... الخ) وهنا تبرز قيمة جهـــاز المراقبة بالنظر ٠

وحتى بالنسبة للطائرات التي تحلق على ارتفاع يصل الى عشرات الأمتار فان أجهزة الكشف الرادارى لا تلتقطها الا على مســـافات قريبة ـ أقل بكثير من المســـافات التى تكشف عنها على الارتفاعات العالية ـ لا تسمح بتوفير الانذار المناسب وبالتالى لا يمكن المقاتلات الاعتراضـية من اعتراضها (ان أمكن اقلاعها) فى الوقت والمكان المناسب ٠

أضف الى ذلك أن بطاريات الصواريخ أرض ـ جو والمدفعية المضادة للطائرات الحديثة يتم توجيهها الى الهدف بواسطة أجهزة رادارية لا يمكنها هى الأخرى التقاط الطائرات المنخفضة وبالتالى لا يمكن أن تصيبها ٠

٢ ـ بعد ظهور التشويش على الأجهزة الرادارية أصبح هناك خطر حقيقى من الاعتماد على أجهزة الرادار وحدها كوسيلة للانذار ، أما مـع وجود نظام المراقبة بالنظر فهناك ضمان لاكتشاف أية طائرة سواء كانت تحلق على ارتفاعات منخفضة أقل من نطاق الكشف الرادارى أو كان هناك تشويش على أجهزة الرادار يعميها عن رؤية الهدف ٠

ولأن مساحة اسرائيل قبل يونيو ١٩٦٧ كانت ضيقة جدا ـ يمكن لطائرة نفاثة حديثة فى بعض أجزاء من اسرائيل أن تعبر من ســـيناء الى الأردن أو بالعكس فى حوالى دقيقة واحدة ـ فان نظام المراقبة بالنظر كان لا يجدى شيئا اذا وقع عليها هجوم جوى على ارتفـــاع منخفض أو تحت ظروف التشويش الرادارى وذلك لأن من أكبر عيوب الانذار عن طريق مواقع المراقبة بالنظر أنه لا يوفر عنصر التبكير اذ أن هذه المواقع لا تستطيع رؤية الطائرات الا على بعد كيلو مترات قليلة فى حين أن أجهزة الرادار

يصل مداها الى مئات الكيلو مترات مما يعطى فرصة كبيرة لتحضير وسائل الدفاع الجوى الايجابى (المقاتلات والصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات) لصد الهجوم الجوى المتوقع ٠

وبعد حرب يونيو ١٩٦٧ اكتسبت اسرائيل مساحات كبيرة من الأراضي وخاصة في اتجاه تلك الجبهة التي تخشاها أكثر من أى شيء آخر ـ الجبهة المصرية بعد احتلال سيناء ـ فازدادت بذلك قيمة نظام المراقبة بالنظر كوسيلة للانذار المبكر خاصة وأنه مزود بوسائل اتصال فعالة لتحقيق سرعة التبليغ وأن الأفراد أو العاملين به على درجة من الوعى تمكنهم من تمييز الطائرات بالنظر وتحديد نوعها وجنسيتها ٠

ورغم ذلك زودت الولايات المتحدة اسرائيل فى الآونة الأخيرة بطائرة رادار محمولة جوا (اى أنها تحمل بداخلها محطة رادار للانذار وتحلق فى الجو) وتحقق قدرة كبيرة على اكتشاف الطائرات التى تحلق على ارتفاعات منخفضة لأن جهاز الرادار في هذه الحالة يكون على ارتفاع عال في الجو ويكشف كل ما هو أسفله وتصل هذه القدرة الى امكان اكتشاف الطائرات وهي رابضة فوق أراضي مطاراتها ، وكثيرا ما شوهدت هذه الطائرة تحلق جيئة وذهابا وسط سيناء من الشمال الى الجنوب وذلك عندما يتأثر الموقف العسكرى بين مصر واسرائيل ويكون من المتوقع شن غارات مصرية على ارتفاعات منخفضة ٠

وهناك عنصر آخر للانذار توليه اسرائيل عناية كبيرة ويتمثل هذا العنصر فى عمليات التصنت على خطوط الاتصالات بأنواعها المختلفة بين قوات الخصم وقد استفادت اسرائيل من ذلك استفادة كبيرة خلال حرب يونيو ١٩٦٧ ، وعلى سبيل المثال فانه فيما يختص بعمليات الدفاع الجوى لو أمكن التصنت على الأوامر الصادرة للطيارين بخصوص طلعات العمليات المقبلة فان معنى ذلك توفير انذار مبكر للغاية أحسن بكثير من جميع أنواع الانذارات الأخرى لأن العدو قد يستطيع معرفة عدد ونوع وارتفاع ووقت وخط السير للطائرات المهاجمة قبل أن تقلع هذه الطائرات من مطاراتها بساعات أو أيام ٠

ومن هنا فانه يستطيع أن يعد قواته للقائها بأحسن كفاءة ممكنة ، كذلك فانه يمكن التقاط العدو للاتصالات اللاسلكية التي تجرى بين طيارى التشكيل المهاجم قبل أن يدخل هذا التشكيل فى نطاق الكشف الرادارى الأمر الذى يوفر هو الآخر انذارا مبكرا يمكن العدو من رفع حالات الاستعداد بين قواته والتأهب لملاقاة هذا التشكيل .

اكذوبة ميزان القوى ✓

وتظهر فائدة ضيق الأراضى الاسرائيلية مرة أخرى فيما يختص بعدد وتوزيع بطاريات الصواريخ أرض ـ جو المضادة للطائرات وعدد المدافع المضادة للطائرات أيضا وذلك لأن ما يحتاجه خصم لتغطية مساحة من الأراضى تصل الى ٧٩٧٨ ميلا مربعا يقل كثيرا عما يحتاجه خصم تصل مساحة أراضيه الى ٣٨٦ ألف ميل مربع (جمهورية مصر) وعلى وجه العموم ـ وبالتسلسل الحسابى المحض ـ فان مصر تحتاج الى حوالى ٤٨ مثلا مما تحتاجه اسرائيل من صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات لحماية أراضيها وان كانت التغطية فى حقيقتها تقتصر على وقاية الأهداف الحيوية فى الدولة فحسب .

ويجدر بنا فى هذا المجال أن نشير الى تلك الضجة التى يثيرها المسئولون فى واشنطن وتل أبيب كلما تلقت مصر شحنة جديدة من الأسلحة . ان المنطق يقول أنه اذا تلقت اسرائيل سلاحا دفاعيا واحدا لتدافع به عن اراضيها ، فان مصر يجب أن تتلقى ٤٨ سلاحا من هذا النوع لحماية أراضيها الشاسعة المترامية ، وبمعنى أدق فانه لو حصلت اسرائيل على بطارية واحدة للصواريخ المضادة للطائرات يجب أن تحصل مصر على ٤٨ بطارية من هذه الصواريخ . ناهيك عن الدول العربية الأخرى .

وتعتمد اسرائيل على المدفعية المضادة للطائرات عيار ٢٠ و ٣٠ و ٤٠مم ورجال المدفعية هناك مدربون على سرعة التعامل مع الطائرات المهاجمة التى تظهر فى نطاق دفاعاتهم حتى اذا لم يكن هناك انذار بتوغل هذه

الطائرات داخل أراضيهم ودون انتظار الأوامر من مراكز العمليات الأعلى التي قد تتأخر لأى سبب من الأسباب ، كذلك تمكنهم قدرة التعرف والتمييز من مساندة مقاتلاتهم أثناء اشتباكاتها مع مقاتلات الخصم وذلك باطلاق مدافعهم على مقاتلات الخصم التى تكون فى مرمى نيرانهم الأمر الذى يجعل أكثر من وسيلة واحدة للدفاع الجوى تشترك فى صد الهجوم الجوى . وهذا يعد مرحلة متقدمة من عمليات الدفاع الجوى .

أما من ناحية الصواريخ المضادة للطائرات فتمتلك اسرائيل ٨ بطاريات من صواريخ هوك الأمريكية الصنع - طبقا لبيانات معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني - وتستطيع كل بطارية من تلك الصواريخ أن تغطى مساحة قدرها ٣٥ كيلو مترا فى جميع الاتجاهات (أي دائرة مساحتها ٢٤٥٠ كيلو مترا) ويعنى ذلك أن مجموع هذه البطاريات يغطى مساحة قدرها ١٩ الفا وستمائة كيلو مترا مربعا أى جميع الأراضى الاسرائيلية علاوة على جزء كبير من حدود الدول العربية المتاخمة لها .

وبالنسبة لعنصر المقاتلات الاعتراضية (مقاتلات الدفاع الجوى) فانه من بين الـ ٥٠٠ طائرة قتال تقريبا التى تملكها اسرائيل هناك حوالى ٢٦٩ طائرة يمكن استخدام جزء منها فى العمليات الاعتراضية أى فى مهام الدفاع الجوى موزعة كالآتى :

حوالى ٢٠٠ طائرة فانتوم ف - ٤ تى قاذفة مقاتلة / اعتراضية .

٦٠ طائرة ميراج ٣ سى قاذفة مقاتلة / اعتراضية بعضها مزود بصواريخ جو جو طراز « آر - ٣٥٠ » .

٩ طائرات سوبر ميستير مقاتلة اعتراضية .

وعندما شنت اسرائيل هجومها الجوى على مطاراتنا صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ ألقت بكل ثقلها فى هذه الضربة التى كان يتوقف عليها كل شيء بعد ذلك ولم يكن هناك داخل اسرائيل غير ١٢ طائرة للقيام بمهام الدفاع الجوى الذى ألقى كل كاهله على وحدات المدفعية والصواريخ

المضـادة للطائرات فضلا عن اخفاء وتمويه المطارات الاسرائيلية والأهداف الحيوية الأخرى بالقدر الذى يصعب من عملية اكتشافها من الجو وبالتالى من قصفها واصابتها ، وكانت ثمانية من تلك الطائرات الـ ١٢ رابضة فوق المطارات في وضع استعداد من الأرض بينما الأربعة الباقون فى مظلة دائمة فوق قطاع غزة .

شبكة الدفاع الجوى الالكترونية

وبسبب الشعور الدائم بالقلق الذى يعترى الاسرائيليين من هـذا العدد الهائل من الدول العربية التى تحيط بها من كل جانب وكان عنصر الزمن عندها له معنى آخر وانعكس هذا على الدفاع الجوى الاسرائيلى الذى تم تحويله الى جهاز دفاع جوى اليكترونى لا يتدخل فيه الآدميون ببطء تفكيرهم وتعرضهم للخطأ .

ومن المعروف ان غالبية أجهزة الدفاع الجوى المتقدمة فى العالم تعمل حاليا اليكترونيا بسبب صعوبة عمل هذا الجهاز وحيويته بالنسبة لأمن الدول وفى ذلك فان أجهزة الرادار « ترى » وترسل معلوماتها اليكترونيا في نفس اللحظة الى مراكز عمليات الدفاع الجوى حيث تستقبلها « عقول اليكترونية » خاصة تقوم بتحليل تلك المعلومات التى تحصل عليهـا الرادارات وعلى الفـور تتم عملية التمييز والتعرف على الطائرات ، فاذا ما وجد هناك هدف معاد تصدر هذه العقول الأليكترونية تعليماتهـا الى اقرب وأنسب القواعد الجـوية لاطلاق مقاتلاتها فى الجـو ثم تقوم العقول الأليكترونية بتوجيه تلك المقاتلات اليكترونيا أيضا ـ لاعتراض الهـدف فى انسب لحظة .

وحتى لا تخطىء المقاتلات الاعتراضية الاسرائيلية اصابة أهدافهـا فقد تم تزويدها بأجهزة أوتوماتيكية لاطلاق النيران ، وهى أجهزة تعمـل بالرادار وبمجرد أن يحدث الاشتباك الجـوى فان الطيـار الاسرائيلى يظل ضاغطا على « زر » اطلاق مدافع طائرته وبفضـل هذا الجهاز لا تخرج الطلقات الا اذا كانت طائرة الخصـم فى مرمى نيران تلك المدافع فتخرج

النيران أوتوماتيكيا توفيرا للذخيرة وضمانا لتحقيق أحسن اصابة ، وبعكس هذا مرة أخرى حرصت اسرائيل على ألا تفوتها الفرصة ودرجـــة التحفز الكبيرة التي تحافظ عليها دواما حرصا على البقاء ٠

مفـــاجأة من العراق

ورغم كل ذلك كانت اسرائيل تخشى الى حد كبير تلك الطائرات من طراز « ميج ــ ٢١ » التي زودت بها مصر وسوريا والعراق والتي تصفها الدوائر الغربية بأنها من أحسن المقاتلات في العالم ، وكان هناك قليل من الخبراء العالميين ممن يعرفون جزءا من التفاصيل والقدرات التي تتمتع بها تلك المقاتلات ٠ حتى ٣ أغسطس عام ١٩٦٦ عندما قرر الطيار العراقي منير روفا أن يهرب بطائرته من هذا الطراز ويهبط بها في اسرائيل ٠

وبالفعل نفذ الطيار العراقي منير روفا خيانته كما وعد مردخاي هود قائد سلاح الطيران الاسرائيلي في ذلك الوقت ، وبعد عشرة أيام ظهرت طائرته على شاشات الرادار الاسرائيلية وكان يحلق على ارتفاع ٣٥ ألف قدم وعبر روفا الأراضي الأردنية حيث شاهد طائرتين هانتر لم يحـــدد ما اذا كانتا تطاردانه أم لا ، وعندما دخل روفا المجال الجوي الاسرائيلي وجد مقاتلتين اسرائيليتين خلفه مباشرة فأخذ يهز جناحيه وأنزل عجلات طائرته (وهي العلامة الدولية على نية الهبوط) وظلت الطائرتان تحرسانه الى أن هبط باحدى القواعد الاسرائيلية ٠

وقد صرح مردخاي هود ، قائد سلاح الطيران الاسرائيلي ، عقب ذلك بأن « الميج ٢١ الحديثة المعدة اعدادا كاملا تملكها مصر وسوريا والعراق ، وهي تشكل العدو الأساسي للسلاح الجوي الاسرائيلي الذي سيفيد كثيرا من وجود هذه الطائرة في حوزته » ٠

العميـــل ٧ ٠٠ « جميس بوند »

وكما حرص مردخاي هود على وصول تلك الطائرة سالمة حرصــت اسرائيل بدورها على عدم اعطاء تلك الطائرة للدول الغربية وأعطتها الرقم

« ٧ ٠٠ » اشارة الى رقم العميل « جيمس بوند » فى حلقات أيان فلمنج الشهيرة ، وظلت اسرائيل تدرس هذه الطائرة دراسة وافية من جميع النواحى ووفرت لأكبر عدد ممكن من طياريها أن يحلقوا بهـا ويلمسوا بأنفسهم أوجه القوة فى تلك الطائرة ، ثم سمحت بعد ذلـك للخبراء الأمريكيين بدراسة تلك الطائرة وامكانياتها ·

وعلى مر التاريخ العسكرى قد لا يكون هناك خصم يتمتع بمثـل ما تمتع به الطيارون الاسرائيليون عندما قادوا بأنفسهم الطائرة التى تعد « عدوهم الأساسى » ــ على حد تعبير قائد السلاح الجوى الاسرائيلى ــ قبل أن يواجهوها فى المعركة بحوالى عام كامل ·

وقد خرجت الدوائر الاسرائيلية بدرس واحد بعد كل التجـارب والاختبارات التى أجرتها على الطائرة « ٧ ٠٠٠ » (الميج ٢١) وهو ضرورة تفادى الاشتباك مع هذه الطائرة على الارتفاعات العالية لأنها قادرة على اسقاط اية طائرة نظرا لما تتمتع به من مرونة هائلة على هذه الارتفاعات ·

وهكذا رأينـا المقاتلات الاسرائيلية تقف ساكنة قبل اندلاع حرب يونيو ١٩٦٧ وبأيام قليلة عندما توغلت داخل أراضيها مجموعة من طائرات الميج ٢١ المصرية كانت تحلق على ارتفاعات عالية فى مهام استطلاعية فوق الأراضى الاسرائيلية مرة تلو الأخرى دون أن تتعرض لها تلك الطائرات عملا بالدروس التى استفادوا بها بعد فحص هذه الطائرة نظريا وعمليا والى الآن لم يحـدث أن اشتبكت اية طائرة اسرائيلية ــ حتى بعد وصـول الفانتوم ــ مع طائرات ميج ٢١ التى تحلق على ارتفاع عال ·

وبعد أن حققت اسرائيل ميولها التوسعية واغتصبت أجزاء كبيرة من الأراضى العربية كان لا بد أن تتغير الصورة وينساب منها هذا التركيز فى وسائل دفاعها الجوى بعد أن تغير مسرحهـا الجغرافى ، وتطلب الموقف اعادة توزيع لوسائل الدفاع الجوى بحيث يمكنها تغطية وحماية الأراضى الجديدة ومن فيها من قوات وتجمعات الأمر الذى أضاف متطلبات جديدة واحتاج الى مزيد من المعدات والفنيين ممـا أدى بالطبع الى ازدياد حجم

ومسئوليات الدفاع الجوى الاسرائيل بصورة لم تكن موجودة من قبل وأثر حتما على درجة كفاءة هذا الجهاز (مساحة سيناء وحدها تصل الى أضعاف مساحة اسرائيل) ٠

على أن أهم ما حدث بعد حرب يونيو ١٩٦٧ هو تطور وسائل الهجوم الجوى لدى الخصمين الأساسيين (مصر واسرائيل) بصورة احتوت فعلا احدث ما تضمه ترسانات الأسلحة بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الأمر الذى كان له تأثير كبير على قوات الدفاع الجوى بالمنطقة ، وبالتالى فاعلية وسائل الهجوم الجوى ٠ وبعد عمليات أكتوبر ١٩٧٣ كان هناك كثير من الخبرات الجديدة فى هذا الصدد الأمر الذى سيكون له آثار بعيدة على جميع نواحى الحرب الجوية فى المستقبل والقضاء على كثير من الأفكار والنظريات التى كانت سائدة من قبل ٠

وبعد ٠٠ لعل الصورة عن هجومنا الجوى على العدو ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ قد اتضحت الآن بما يوضح دقة المهمة التاريخية التى ألقيت على نسورنا ، والمجهودات الهائلة التى بذلت خلال فترة التخطيط والتدريب لضمان وصول طائراتنا الى اهدافها واختراقها بنجاح نطاق دفاعات العدو الجوية ثم نجاحها فى التعامل مع أهداف العدو الحيوية داخل سيناء فعودتها الى قواعدها سالمة ، فيما عدا طائرة واحدة » ٠

انتقام السلاح الجوى المصرى

● انتقام السلاح الجوى المصرى

هناك احساس قوى بين العاملين فى مجال الطيران والدفاع الجوى يحصر الفترات الحرجة فى فترتين :

١ ـ فترة أول ضـــوء (الفجر) حيث يكون معظم الأفراد نائمين والارهاق يغلب على أولئـــــك المنوبين بالسهر والخدمة (النوبتجية) ٠ وتعتبر هــذه الفترة تالية لتوجيـــه الضربة الأولى وبعدها يستغل الطرف المهاجم النهار بأكمله فى توجيه ضرباته الجوية الى خصمه بواسطة المقاتلات والقاذفات المقاتلة النهارية التى لا تستطيع أن تعمل ليلا والتى تشـــكل الجانب الأكبر من طائرات أى سلاح جوى ٠

٢ ـ فترة آخر ضوء (الغروب) وفيها يستطيع الطرف المهاجم أن يوجه ضربته الى الأهـــداف الحيوية لخصمه ثم يعود بسرعة الى مطاراته متفاديا أى هجوم جوى مضاد من جانب هذا الخصم لأن الليل يكون قد خيم على المنطقة وتصبح طائرات القتال النهارية غير صالحة للعمـــــل ، ويتم استغلال فترة الليل فى تحقيق مكاسب سريعة حاسمة ٠

ولذلك فانه فى العادة تتوتر الأطراف المتنازعة خلال هاتين الفترتين

ويترقب كل خصم هجوما جويا من جانب الطرف الآخر ، فان مر اول ضوء بسلام استرخت الأعصاب وزال الترقب حتى يحين وقت الغروب (آخر ضوء) ليظهر التوتر مرة أخرى ، وتكاد أن تكون هذه العادة شبه قاعدة عامة بين مختلف جيوش العالم ، اما وانه قد جاء الهجوم العربى فى اوج فترات الظهيرة ، فقد كان هذا حدثا فريدا انفردت به حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

الطـائرة المشئومة

وقبل ظهر يوم ٦ أكتوبر بقليل ظهرت فى مياه البحر الأبيض أمام الساحل المصرى طائرة استطلاع اليكترونية معادية (قد تكون اسرائيلية ولكن على الأرجح أمريكية) وهى طائرة كبيرة الحجم ومتوسطة السرعة ظلت تجوب المسافة أمام سواحلنا جيئة وذهابا .. ماذا حدث هل علم العدو بنوايانا .. هل هى طائرة رادار محمول جوا من النوع المستخدم فى عمليات الانذار المبكر وجاءت الى هذه المنطقة لتكشف أية طائرات تتجه الى اسرائيل .. ؟

أسئلة كثيرة أثارتها هذه الطائرة خاصة وأننا كنا نراها كلما توتر الموقف بيننا وبين اسرائيل . وقبيل حرب يونيو عام ١٩٦٧ مباشرة ظهرت هذه الطائرة بنفس السرعة ونفس الارتفاع أمام شواطئنا وظلت تجوب فوق مياه البحر جيئة وذهابا من سيدى عبد الرحمن تقريبا الى بور سعيد ولكن بعمق حوالى ٢٠ كيلو مترا فى مياه البحر الأبيض المتوسط . كانت تلك الطائرة حينذاك تلتقط جميع موجات الرادار والاتصالات اللاسلكية داخل أراضينا وهى عملية بالغة الأهمية فى الحروب الحديثة ويعنى حصول العدو عليها أنه يصبح قادرا على ابطال مفعول شبكتنا الرادارية وشبكات الاتصال اللاسلكى بمختلف أنواعها وترددانها ، ويستطيع أى انسان أن يتصور مدى الفوضى والارتباك بين صفوف أى جيش حديث اذا ما فقد قدرته على رؤية العدو وتبادل المعلومات وتوصيل الأوامر والتعليمات على مختلف مستويات القيادة .

فى نفس هذا الوقت كان اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية قد

أدرك ملحوظة بالغة الأهمية ، أن طائراتنا الحربية لها نشـــاط يومي لا ينقطع يقوم خلاله كل طياري القوات الجوية بالتدريب على كافة فنون الطيران والملاحة الجوية ، وبالطبع فان هـــذا النشاط يراقب عن كثب بواســـطة أجهزة رادار العدو ويتم دراســـته وتحليله بواسطة دوائر الاستطلاع المعادية .

وفي هذا اليوم (٦ اكتوبر) أدرك قائد الطيران المصري أن سماءنا خالية تماما من طائرات الســـلاح الجوي لأن الطيارين كانوا قابعين في قواعدهم يتدارسون ويستعدون لساعة الصفر . الأمر الذي كان سيثير حتما ريبة العـــدو ويشعره بأن شيئا ما يجري تدبيره على الجبهة المصرية خاصة وأن حالة الجو في هذا اليوم كانت مثالية لجميع أنواع الطيران .

تدريب ام حرب

وعندئذ أصدر اللواء حسني مبارك أوامره لبعض القواعد الجـــوية لاخراج عدد من طائراتها في الجو تمارس عمليات التدريب اليومي وعلى ارتفاع كاف يسمح لأجهزة رادار العدو باكتشاف طائراتنا ويتأكد أننـــا نمارس تدريباتنا العادية وأننا لا ننوي القيام بأي عمل غير عادي ، وبالطبع التقطت أجهزة الرادار الاسرائيلية طائراتنا وهي محلقة في الجو تمـــارس تدريباتها اليومية الأمر الذي أدى حتما الى ازالة شكوك وريبة العدو .

في نفس هذا الوقت كان اللواء محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي قد أبلغ الفريق أول أحمد اسماعيل القائد العام للقـــوات المسلحة بقصة طائرة الاستطلاع المعادية التي « تتطفل » علينا من الشمال وفوق مياه البحر الأبيض .

وفي الحال بدأ تجهيز طلعة خاصة من مقاتلاتنا الاعتراضية لاعتراض طائرة الاستطلاع المعادية وتدميرها بأية وسيلة ، وبعـــد أن تم اعداد خطة تدمير هذه الطائرة وتلقين الطيارين ومحطة التوجيه التي ستتولى العملية جلس الجميع ينتظرون اشارة البدء ، فاذا بالطائرة المشئومة وبغير سابق انذار تكف عن عمليات الاستطلاع وتقطع خط سيرها ، ثم تتجه شـــمالا

داخل مياه البحر الأبيض ، وتنفس الجميع بارتياح فقد كانت عقارب الساعة قد اقتربت من الثانية ظهرا وهناك عمل تاريخي ينتظر الجميع ·

قبل دقائق من الساعة الثانية ظهرا ، اختلفت من مطار لآخر ، بدأت طائراتنا المقاتلة وقاذفاتنا المقاتلة تقلع من مطاراتها دونما أية نداءات أو أحاديث لاسلكية بين الطيارين أو مراكز القيادات الأرضية ، كان الصمت تاما فكل له دور محدد والكل يعرف هذا الدور جيدا وتدرب عليه كثيرا وكاد أن ينفد صبره إنتظارا لتحقيقه ·

بدأت تشكيلاتنا الجوية تحلق متجهة الى سيناء وذلك بسرعات محددة اختلفت من تشكيل لآخر وبارتفاعات منخفضة جدا (بضعة أمتار من سطح الأرض فيما يسمى بأسلوب الفئران Rats method وذلك لتفادى شبكات الرادار الاسرائيلية ، ومن اتجاهات مختلفة مواصلة سيرها الى مختلف أهداف اسرائيل الحيوية داخل سيناء ·

كسر الصمت

وفي لحظة واحدة كانت جميع طائراتنا فوق تلك الأهداف التي سبق تحديدها وبدأ « كسر الصمت » الذى ساد طوال المسافة من قواعدنا الجوية الى أهدافهم الحيوية داخل سيناء ، وتلقائيا ودونما سابق اتفاق كانت العبارة السائدة التي تتردد في أفواه الطيارين عبر أجهزة اللاسلكى « الله أكبر » ثم بعدها عبارة اضرب ·· اضرب ·

كان اهتمامنا الأول بضرب مطارات العدو ثم مراكز الاعاقة والشوشرة والتوجيه الأليكترونى ومراكز قيادات العدو داخل سيناء ، وكانت الضربة موفقة خصوصا فى « أم خشيب » و « أم مرجم » و « الطاسة » و « تل الفضة » وكلها مواقع حيوية تضم أجهزة اليكترونية معقدة بالغة الأهمية بالنسبة لشبكة الدفاع الجوى الاسرائيلية والقيادة والسيطرة على الطيران الاسرائيلى ·

وقد نتج عن ضرب هذه المواقع أن حدث ما يسمى فنيا « بتمزيق فى

شبكة الدفاع الجوى ، الاسرائيلية وانخفضت فاعليتها بنسبة كبيرة وكان الموقف يحتاج الى أجهزة جديدة لتشغيلها بدل الاجهزة العديدة التى تم تدميرها . وكانت قواتنا لا تسمح للعدو بأية فرصة لاحضار هذه الاجهزة وتركيبها عن طريق الاستطلاع الدائم والطلعات الجوية الفورية ضد أية محاولة يقوم بها العدو لاصلاح ما أفسدناه ، وكان من جراء هذا ـ بالاضافة الى اصابة ممرات القواعد داخل سيناء والطائرات التى كانت تربض فوقها أن استطعنا لفترة طويلة أن نشل فاعلية الطيران والدفاع الجوى الاسرائيلى .

دين قديم

استطاع طيارونا أن يردوا للطيارين الاسرائيليين ما فعلوه بنا صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، ليس هناك معجزات فى هذا العمل (ولو أن اسرائيل صورت ضربتها الجوية فى ١٩٦٧ على أنها عبقرية عسكرية لن تتكرر) كل مايحتاج اليه الأمر شىء من الدراسة لامكانيات العدو ثم دراسة امكانياتنا ، وبعدئذ يتم التخطيط ثم تجرى التجارب والتدريبات والمحاولة مرة تلو الأخرى ، وفى كل مرة تضاف تعديلات وتفصيلات جديدة ، وهنا يبرز دور القيادة : ان أحسنت العمل فى كل هذه المراحل نجحت الخطة ، وان أساءت فانها تلقى بالرجال الذين سينفذون الخطة الى براثن العدو .

ولم يحدث فى التاريخ أن أسىء فهم الرجال كما أسأنا فهم رجال الطيران المصرى بعد حرب ١٩٦٧ ، لقد نجحت الضربة الجوية الاسرائيلية وتم تدمير معظم طائراتنا وهى رابضة على الأرض واعتقدنا جميعا أن هذا هو سر الهزيمة . كان لا يمكن ان نتكلم عما فعله الطيارون المصريون وقتذاك ، وان أنس لا أنس الشهيد سعيد عثمان وهو ملازم شاب فى مطار المليز الذى وصلت الطائرات الاسرائيلية فوقه وبدأت تدكه بالقنابل واذا بالشاب يأمر الفنيين صارخا « دوروا الطيارة » ، ويقلع الشاب الأسمر رغم أن الطائرات فوق رأسه ويعتبر المطار بالتعبير الفنى « مغلقا للعمليات » .

يقلع الشاب وطلقات رشاشات الطائرات الاسرائيلية تحف به على جانبي الممر ، ومع ذلك يستمر وينجح في الصعود الى الجو وعلى الفور يقحم نفسه داخل تشكيل العدو ويظل يناور معهم في زوايا تصادمية يريد أن يصطدم بهم او « يطفشهم » من فوق المطار ٠

لحظات الجنون الرائعة

يظل الطيار المصرى فى هذه المحاولات الانتحارية الى أن يبعد سرب طائرات العدو شيئا فشيئا عن المطار فيهرع بعض من زملائه الى طائراتهم ويقلعون بها ٠ غاب الطيار المصرى والطائرات الاسرائيلية عن الافق ثم كان أن غاب عنا هذا الطيار الى الأبد وعادت الطائرات الاسرائيلية تغلق المطار مرة أخرى وعندما وجدت ان هناك طائرتين تحاولان الاقلاع انقضت عليهما في اللحظة الحرجة التى كانتا تغادران فيهـــا الأرض وأصابت احداهما ٠

يقفز قائد هذه الطائرة بالمظلة ويجرى مسرعا بين الطلقات والقنابل ليقود طائرة أخرى ويلحق بزميله ، ولكن كان الوقت قد فات واستطاعت الطائرات الاسرائيلية أن تدمر المطار فعادا بطائرتيهما ليهبطا بهما سليمتين فى مطار القاهرة الدولى ٠

وفى مطار أبو صوير لا ننسى النقيب طيار عبد المنعم مرسى الذى أقلع من ممر مدمر بأكمله ولم يكن فيه مســـاحة سليمة غير ٢٠٠ متر استطاع بالمعجزة فعلا أن يقلع منها رغم أن الطائرة النفاثة تحتاج الى ممرات يصل طولها الى كيلو مترات حتى يمكن أن تصعد الى الجو ٠

ويصعد الطيار المصرى والطائرات الاسرائيلية فوق رأسه ثم يصطدم معها فى معركة شرسة غير متكافئة ويسقط طائرتين ٠ ووصل وقود طائرته الى الحد الحرج فكان لابد أن يقفز بالمظلة ويترك الطائرة ، ولكنه يعلم أن طائراتنا قد دمر العدو معظمها فتنتابه لحظة رائعة من الجنون يحاول خلالها أن يهبط بطائرة ، يكاد وقودها أن ينفد ، فوق مطار قام العدو بتدميره ،

وتتحطم الطائرة ويستشهد قائدها الذى اقتنع أن لا فائدة لحياته دون أن يكون سلاحه سليما ٠

نفس الاحساس انتاب الرائد طيار مدحت المليجى ، الشاب الأنيق الذى يتفجر بالحياة ، عندما صدرت اليه الأوامر بالاقلاع وضرب أحـــد مطارات العدو داخل سيناء ، وصعد واتجه الى المطار الاسرائيلى حيث وجد عددا من طائرات الهليكوبتر رابضة فوق أرض المطار فانقض عليها ودمرها ثم قفل عائدا ليجد جميع مطاراتنا غير صالحة للاستعمال ، كان الحل الوحيد أن يقفز بالباراشوت ولكنه كزميله الآخر أراد أن يحافظ على الطـائرة سليمة ، وعلى أحـد الطرق البرية في منطقة القناة شرع الطيـار المصرى يستحضر كل كفاءاته لينزل سليما بالطائرة ، وبالفعل بدا يهبط وما كاد يلامس الأرض حتى شاهد سيارة ملاكى على نفس الطريق .فجنح معرضا نفسه للخطر فتحطمت الطائرة على جانب الطريق واستشهد الرجل النبيل ٠

وهنـاك غيرهم لم يستشهدوا واستطاعوا أن يسقطوا عـددا من الطائرات الاسرائيلية وسط هذا الجحيم والنزال غير المتكافىء ، كانت هناك بضـعة طائرات قد نجت من المصير المشئوم وكان الطيـارون المصريون يتشاجرون للحصول على احداها والصعود فى الجو لملاقاة العدو واستطاعوا بواسطة هذا العدد الضئيل من الطائرات أن يوقفوا « قول » (طابور) مدرع اسرائيلى كان يتقدم على الطريق الساحلى الشمالى فى سيناء وقبل أن يصل الى القناة دمروا معظم مدرعات وعربات هذه القوة الاسرائيلية ٠

كلها قصص حجبتها النكسـة التى كنا نعانى منها وليست هذه كل البطولات الفردية لسلاح الطيران المصرى فى هذه الفترة السوداء ٠ فهناك المقدم طيار سامى فؤاد الذى خرج من قاعدة انشاص « أثناء مهاجمة القاعدة واستطاع أن يسقط طائرة ميراج للعدو رغم أنها كانت بين سبع طائرات اخرى واستشهد بعد ذلك ، وهناك الرائد طيار فتحى سليم الذى خرج بطـــائرته واعترض عددا من طائرات نور أطلس تقوم باسقاط المظليين الاسرائيليين عند منطقة الطور واسقط احداها بمن فيها رغم طائرات الميراج التى كانت تحرسـها عن قرب واستشهد بعد ذلك وهو يحاول بدوره الهبوط فى مطار مدمر ليحافظ على الطائرة ٠

وبعد أيام من النكسة كان سلاح الطيران المصرى قد تلقى طائرات جديدة وفي يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ بدأ العدو في قصف مدينة الاسماعيلية بمدافع الميدان والهاونات وصدرت الأوامر الى سلاح الطيران بالخروج وضرب كل مواقع العدو شرقى القناة ٠

وفي هذا اليوم قام الطيران المصرى بحوالى مائتين وخمسين طلعة فوق العدو ولم تتصد له طائرة واحدة من العدو وظلت طائراتنا تضرب فى العدو حتى آخر ضوء من هذا اليوم ٠ وفي اليوم التالى (١٥ يوليو) خرج سلاحنا الجوى مرة أخرى مع اول ضوء وظل يهاجم المواقع الاسرائيليه شرقى القناة بقسوة وشراسة وانسحبت أعداد كبيرة من الاسرائيليين هربا وأجريت بالفعل بعض المحاكمات فى صفوف الجيش الاسرائيلى بسبب هذا الهروب ٠ ويروى شاهد عيان أنه شاهد بنفسه أعدادا هائلة من القتلى والجرحى كانت السلطات الاسرائيلية تقوم باخلائهم من جبهة القناة ٠

مصرع المقدم دان

وفي يوم ١٩٦٧/٧/١٥ وقعت معركة جوية بين ٤ من مقاتلاتنا و ٨ مقاتلات من طراز ميراج. وكان الاسرائيليون قد ضربوا مستودعات البترول فى السويس ، وعندما وصل طيارونا فوق السويس كانت أعمدة الدخان تتصاعد من المستودعات المشتعلة فثار غضبهم وأخذوا يفتشون عن الطائرات الاسرائيلية ، ثم أبلغوا بعد ذلك أن هناك ٨ طائرات معادية عند منطقة فايد فأسرعوا اليها وتم اللقاء ٠

وفي هذه المعركة استطاع قائد التشكيل المصرى أن يسقط طائرة قائد التشكيل الاسرائيلى بعد معركة عنيفة كاد خلالها أن يصطدم بأشجار النخيل فى منطقة القناة ٠ وقد سقطت الطائرة الاسرائيلية بجوار احدى هذه الأشجار ٠ وكان النصف العلوى من جثة قائدها بجوار شجرة أخرى واتضح بعد ذلك أنه المقدم دان واحد من أحسن الطيارين الاسرائيليين المقاتلين ، وأنه قائد ثان سرب القتال الاسرائيلى ١٠١ الذى يضم خيرة الطيارين الاسرائيليين ويكلف بالمهام الخاصة جدا ٠

وفي نفس هذه المعركة استطاع باقي رجال التشكيل المصرى أن يسقطوا ٤ طائرات أخرى (يصبح المجموع ٥ طائرات) وكان من بين طيارينا ملازم طيار حديث التخرج لم يكن قد أكمل سوى ٢٠ ساعة تدريب على المقاتلة التي يقودها ومع ذلك بدأ حياته العسكرية باسقاط طائرة ميراج يقودها واحد من صفوة الطيارين الاسرائيليين • واستمرت الاشتباكات الجوية طوال فترة ما بعد حرب ١٩٦٧ حتى أكتوبر ١٩٧٣ ، وتركزت بصورة خاصة وبكثافة كبيرة خلال فترة حرب الاستنزاف •

الكمائن في الجو

وان سلاح الطيران المصرى ـ لا ينسى في هذه الفترة قصة صديقين من طيارينا المقاتلين هما : الرائد طيار سامح مرعى والنقيب طيار أحمد نور الدين ، كانا رمزا للحيوية والشباب والمرح وكانا لا يفارقان بعضهما في الأرض أو السماء • وعندما انتهت حرب يونيو ١٩٦٧ الى ما انتهت اليه اختفى المرح من حياة هذين الصديقين وصمما معا على الثأر في أقرب فرصة من سلاح الطيران الاسرائيلى ، وأن يثبتا للجميع أن طيارينا أحسن بكثير من الطيارين الاسرائيليين ، وأتيحت لهما هذه الفرصة مرات كثيرة استطاع خلالها كل منهما أن يسقط ٣ طائرات ميراج اسرائيلية •

وفي يوليو ١٩٦٩ استشهد النقيب طيار أحمد نور الدين في كمين جوى (١) اشتبكت معه خلاله ٨ طائرات اسرائيلية عند منطقة خليج السويس وكان بمفرده ورغم ذلك استطاع أن يسقط طائرة اسرائيلية وأفلت من باقي طائرات الكمين بأن انقض بسرعة هائلة الى سطح الأرض ثم اتجه على ارتفاع منخفض الى قاعدته وهناك فوق صحرائنا الغربية توقف محرك طائرته واضطر الى القفز بالمظلة ولكنه قفز متأخرا بعض الوقت وكان أن لاقى ربه قضاء وقدرا وليس بسبب الأعداء ، تماما كما كان يقول لزملائه بأنه لا يوجد طيار اسرائيلى يستطيع أن ينال منه •

---

(١) كان العدو يلقى بعدد من طائراته في مجالنا الجوى ؛ وعندما تخرج اليها مقاتلاتنا بالعدد المناسب يتضح وجود أضعاف هذا العدد من الطائرات الاسرائيلية تنتظر على ارتفاع منخفض أو تصل لنجدة بتدبير سابق الى منطقة الاشتباك •

وعند هذه اللحظة ازداد تصميم زميله سامح مرعى على القتال : قتال الطيارين الاسرائيليين واسقاط أكبر عدد منهم ، وذلك رغم انه كان مصابا في قدمه ـ خلال حرب اليمن ـ بالاضافة الى أن ظهره كان يؤلمه آلاما مبرحة أخفاها عن طبيب السرب وعن جميع زملائه ، وظل يخرج في كل مناسبة لمقاتلة الطيارين الاسرائيليين ، وكان أن قاد المعركة التى أسقطنا فيها أول طائرة فانتوم يوم ٩ ديسمبر عام ١٩٦٩ بفضل مهارته وارشاداته للطيار الشاب « عاطف » الذى كان يزامله فى هذه المعركة ومكن « عاطف » وكان وقتها برتبة الملازم من اسقاط أول طائرة فانتوم وتحطيم هالة الأساطير التى كانت تحيط بها .

ومرة أخرى عند « المنزلة » أسقط سامح طائرة ميراج أخرى انفجرت أمامه فى الجو بمن فيها وساعد زميلا برتبة الملازم أيضا ، فى أن يسقط بدوره طائرة ميراج أخرى قفز قائدها وتم أسره ، وبلغ ما أسقط سامح من طائرات العدو ٥ طائرات غير المساعدات التى قدمها لزملائه لتمكينهم من اسقاط طائرات العدو انتقاما لصديقه الشهيد ، وظل يخرج فى كل طلعة وكل مناسبة ـ وكان قادة القوات الجوية يطمئنون الى أبعد حد لنتائج الاشتباك الجوى عندما يكون الرائد سامح مشتركا فى القتال ـ حتى سقط بدوره فى كمين جوى فى آخر فبراير عام ١٩٧٠ ظل خلاله يناور صعودا وهبوطا مع ٨ طائرات فانتوم حتى لاحت النهاية المحتومة ، وكان يمكن أن يقفز بالمظلة ولكنه رفض ذلك تماما وسقط بطائرته شهيدا منفذا وعده : « اما أن أقتلهم جميعا أو يقتلنى أحدهم » .

كان يمكن أن تذهب هباء كل تلك البطولات ودماء الشهداء لو لم تنشب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وعندما انطلقت اشارات الهجوم يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وخرج جيل جديد من الطيارين بعضهم اكتسب الخبرة بنفسه من العمليات السابقة والبعض الآخر اكتسبها من الرجال الذين سبقوه ، وفى هذا اليوم لم تخرج فقط مقاتلاتنا الاعتراضية ـ التى قامت بكل العبء طوال فترة ما قبل أكتوبر ١٩٧٣ ـ ولكن خرجت معها المقاتلات القاذفة والقاذفات الثقيلة وأكثر من هذا وذاك أسرابا عديدة من طائرات الهليكوبتر

اشتركت لأول مرة بحجم هائل لتنقل رجال الصاعقة الى اعماق سيناء بمجرد نشوب القتال ليؤدوا هم الآخرون دورا بارزا لن ننساه ٠ (سيرد ذكره فى فصل آخر) ٠

عندما عاد الزمن الى الوراء

كانوا قد تعودوا على العدو الجوى وأساليبه ، وفى الاشتباكات العديدة التى دارت فى سمائنا شرق وغرب القناة أثبتوا أن الميج تستطيع أن تواجه الفانتوم وعندما وصلوا الى مطارات العدو وبطاريات صواريخه وراداراته ومركز القيادات المختلفة فى سيناء أشبعوها ضربا بالقنابل والرشاشات كما لو كان الزمن قد عاد الى الوراء ست سنوات وأربعة أشهر ويوم وأربع ساعات ، واستطاع السلاح الجوى المصرى أن يرد الدين الثقيل ، الذى ظل يؤرقه طوال هذه السنوات الطويلة ٠

وخلال عمليات القتال كان سلاحنا الجوى يمد تشكيلاتنا البرية بطلعات المعاونة اللازمة ويساندها فى قتال العدو البرى ، وفى هذه المهام برز بصورة خاصة دور الطائرات «ميج ١٧» فأثبتت أنها طائرات على درجة كبيرة من الفاعلية رغم السنوات الطويلة التى مرت على صنعها ، كذلك لعبت أسراب الهليكوبتر المصرية دورا كبيرا فى عمليات الابرار الجوى لوحدات الصاعقة وعمليات الامداد والتموين للوحدات البعيدة كذلك لعبت هذه الطائرات دورا هاما فى عمليات البحث والانقاذ سواء بالنسبة لطيارينا الذين اضطروا للقفز بالمظلات من طائراتهم ، أو طيارى الأعداء الذين تصاب طائراتهم ويقفزون فوق أراضينا ، فكانت الهليكوبتر تخرج على الفور فى مهام البحث والانقاذ واستطاعت أن تنجز المهام التى كلفت بها بكفاءة عالية ٠

ورغم أن الاستخدامات الحديثة للهليكوبتر كانت وليدة تجربة القتال فى فيتنام واستطاع بها الامريكيون أن يحققوا كل المهام الصعبة التى لايستطيع انجازها أية مركبة أخرى برية كانت أو بحرية أو جوية ، ورغم أن اسرائيل التقطت هذه الخبرة على الفور عن طريق الأمريكيين وعن طريق

الملاحظة المباشرة لتطور القتال فى فيتنام من جانب القادة الاسرائيليين ـ وعلى راسهم موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى ٠

رغم ذلك كله ـ وأكثر من هذا . ان اسرائيل سبقتنا بسنوات كثيرة فى تطبيق الاستخدامات الحديثة لتلك الطائرات ـ فان أسراب الهليكوبتر المصرية استطاعت أن تفوق أسراب الهليكوبتر الاسرائيلية سواء من ناحية اجمالى طلعات العمليات أو نوعية وأحجام المهام التى كلفت بها مما دفعها الى مكانة مرموقة بين الأسلحة التى أثرت مباشرة على نتائج حرب أكتوبر ٠

ويمكن تلخيص دور القوات الجوية فى حرب أكتوبر حسب المراحل الآتية :

أولا ـ أثنـاء العبـور :

اشتركت حوالى ٢٠٠ طائرة مصرية من المقاتلات والقاذفات المقاتلة فى الهجمة التاريخية الأولى وقامت بدك مطارات العدو فى سيناء بما فيها من طائرات ٠ وقصف مراكز القيادة والتوجيه ومواقع الرادار والصواريخ هوك أرض ـ جو ٠

ثانيا ـ الابرار الجوى داخل سيناء :

قامت أسراب الهليكوبتر بابرار قوات الصاعقة فى عمق سيناء وعلى طول المواجهة وبتركيز خاص عند المضايق وطرق الاقتراب فى وسط سيناء وعلى طول خليج السويس مما كان له عظيم الأثر على عملية العبور اذ تمكنت هذه القوات من منع وصول احتياجات العدو الى جبهة القناة فى الوقت المناسب بجانب مهاجمة خطوط امداده ومواصلاته الخلفية مما أعطى فرصة كافية لقواتنا لاتمام عملية العبور وانشاء الدفاعات على الضفة الشرقية للقناة وتحسين أوضاعها ٠

ثالثا : انشاء رءوس الشواطىء على الضفة الشرقية للقناة :

وكانت قوات المشاة التى عبرت القناة في موقف حرج للغاية اثناء هذه المرحلة لأن عملية انشاء الكبارى والمعابر لم تكن قد اكتملت بعد وبالتالى لم يتم عبور مدرعاتنا ومدفعياتنا ومعداتنا الثقيلة ، وكانت قوات المشاة تقف وحدها فى مواجهة معدات العدو وأسلحته الثقيلة ، وعندئذ قامت قواتنا الجوية بمهاجمة قوات العدو ومدرعاته عند مناطق رءوس الشواطىء التى وقع عليها الاختيار الأمر الذى مكن قواتنا من انشاء هذه الرءوس الحيوية ثم عبور مدرعاتنا ومدفعياتنا لتأمين وحماية قواتنا فى مناطق رءوس الشواطىء وتوسيع هذه الرءوس وفى نفس هذه المرحلة قامت قواتنا الجوية مرة أخرى بمهاجمة مطارات العدو فى سيناء للحد من تأثيره وفاعليته على قواتنا أثناء هذه المرحلة الحاسمة .

رابعا ـ مرحلة تطوير الهجوم داخل سيناء :

قامت قواتنا الجوية فى هذه المرحلة بمهاجمة مطارات العدو مرة أخرى بجانب مهاجمة تجمعات قواته البرية ومناطق حشدها وبتركيز خاص على تلك القوات التى كانت تعترض تقدم قواتنا البرية .

خامسا : حماية مدينة بور سعيد :

لما كانت مدينة بور سعيد منطقة منعزلة بسبب طبيعتها الجغرافية فقد ركز عليها العدو غاراته الجوية فى محاولة لعزلها عن قواتنا ، وبجانب وحدات الدفاع الجوى التى استبسلت فى الدفاع عن المدينة واسقطت هناك أكثر من ٣٠ طائرة اسرائيلية احتاجت بعدها لفترة تسكين تقوم خلالها بعمليات الاستعواض والاصلاحات اللازمة ـ قامت حينذاك قواتنا الجوية بتولى مهام الدفاع عن مدينة بور سعيد وخاضت هناك معارك جوية ضخمة كان يزيد فيها عدد الطائرات المشتبكة من الجانبين عن مائة طائرة وهناك أسقطت عشرات الطائرات الاسرائيلية وصمدت مدينة بور سعيد حتى نهاية الحرب .

سادسا : المعاونة الأرضية لقواتنا البرية :

نجحت قواتنا الجوية طوال فترة العمليات فى تقديم المعاونة الأرضية اللازمة لكافة وحدات القوات البرية في كافة مراحل القتال ، وفى هذا المجال لعبت القاذفات المقاتلة دورا بارزا ونفذت بفاعلية كبيرة جميع المهام التي طلبت منها الأمر الذي كان له اثر كبير على نتائج القتال البرى ·

سابعا : أثناء الاختراق الاسرائيلى في منطقة الثغرة :

كانت قواتنا الجوية هي أول من قابل العدو المتسلل عبر منطقة الدفرسوار وكانت مئات الطائرات تخرج يوميا لقصف قوات العدو ومدرعاته شرق وغرب منطقة الدفرسوار ، وبالفعل نجحت قواتنا الجوية في ايقاف تقدم العدو هناك ثلاثة أيام متوالية وكبدته خسائر كبيرة فى المعدات والأفراد ، وفى هذه العملية بالذات اشتركت قاذفاتنا الثقيلة « ت ـ يو ١٦ » بطلعات كثيرة وفعالة ألقت خلالها آلاف الأطنان من القنابل فوق قوات العدو وأحالت المنطقة الى بؤرة من الجحيم ·

كلهم اولادى

وبالطبع كان أن انضم فريق آخر من أبناء القوات الجوية الى طابور الشهداء العظام وشاء القدر أن يستشهد النقيب طيار عاطف السادات ـ الشقيق الأصغر للرئيس أنور السادات ـ في أول أيام القتال ومن مركز قيادة القوات الجوية ، اتصل اللواء طيار حسنى مبارك بالفريق أول أحمد اسماعيل وأبلغه النبأ فرد عليه وزير الحربية هامسا : « ان الرئيس يجلس الى جوارى مباشرة » ثم اتفقا معا على اخفاء النبأ عن الرئيس ·

كانت السيدة جيهان السادات هي التي أبلغت الرئيس بنفسها ، انتهزت الفرصة أول مرة لتقول له انه « لا توجد أنباء عن عاطف » وفكر الرئيس المصرى قليلا ثم سكت ، وفى مرة أخرى قالت له السيدة الفاضلة التي قامت بمجهودات خيالية منذ بدء القتال حتى الآن : « ان البلد كلها تقول ان شقيق الرئيس استشهد فى القتال » وفكر الرئيس المصرى قليلا ثم قال : « كلهم أولادى » ·

خطوط الدفاع الإسرائيلى

● خطوط الدفاع الاسرائيلى

نجحت الصهيونية العالمية في تجنيد عدد من الضباط والجنود اليهود ضمن صفوف الجيش الثامن البريطانى الذى كان يحارب الألمان فى صحرائنا الغربية وقد قصد بهذا الاجراء ان يستوعب هؤلاء الجنود أساليب حرب الصحراء فوق صحرائنا الغربية ليطبقوها فيما بعد فوق صحرائنا الشرقية وفلسطين بعد أن تقرر انشاء دولة اسرائيل هناك ٠

وبعد انتهاء القتال فى شمال افريقيا بعام كامل (سبتمبر ١٩٤٤) نجحت الصهيونية العالمية فى الحصول على موافقة الحكومتين الأمريكية والبريطانية بانشاء وتسليح واستخدام لواء يهودى يرفع راية نجمة داود فوق قطاعه من جبهة القتال الايطالية وبذلك خرجت النواة التى تكون منها جيش الدفاع الاسرائيلى قبل ان تظهر الدولة نفسها بحوالى ٤ سنوات ٠

وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية قام هذا اللواء اليهودى بتهريب الأسلحة والذخائر والمعدات المختلفة الى فلسطين ، ولكن كان أكثر من هذا كله الخبرة الواسعة والممارسة الطويلة التى جمعها هؤلاء الضباط والجنود وهم يخدمون بين صفوف الحلفاء ضد عدو اعترف العالم بعبقريته العسكرية ٠

وفى صحرائنا الغربية شاهد هؤلاء انماط وأساليب الدفاع المختلفة

مرة تلو الأخرى على امتداد ٣ سنوات ما بين سبتمبر ١٩٤٠ وسبتمبر ١٩٤٣ تعرض خلالها الجيش الثامن البريطانى لعديد من الانتصارات والهزائم ، لم يهتم خلالها الصهاينة بحلاوة النصر أو مرارة الهزيمة واقتصر نشاطهم على تحليل الأسباب التى تؤدى لهذا أو ذاك والخروج منها بالدروس المستفادة .

من علم حلفا الى سيناء (١)

استخلص الصهاينة من معركة سيدى برانى الشهيرة فشل أسلوب الدفاعات الخطية التى اتبعها الجيش العاشر الايطالى ، وفى معركة الغزالة استخلصوا أيضا فشل أسلوب الدفاع الصندوقى ، الذى اتبعه الجيش الثامن البريطانى ومن معركة علم حلفا عثر الفكر العسكرى الصهيونى على بغيته ممثلة فى نمط الدفاع المرن الذى اتبعه الجيش الثامن البريطانى ـ والذى كان اليهود يخدمون بين صفوفه ـ واستطاع من خلاله أن يصد هجوم المارشال روميل فى آخر محاولاته للوصول الى قناة السويس والاستيلاء على بترول الشرق الأوسط للتغلب على مشاكله التموينية وخطوط امداده الطويلة التى تتعرض لهجمات متتالية من طيران الحلفاء .

ومنذ بدء الصراع العربى الاسرائيلى وحتى جولته الرابعة فى أكتوبر ١٩٧٣ كان جيش الدفاع الاسرائيلى يتبع دائما أسلوب الدفاع المرن فى بعض أو كل الجهات والاتجاهات التعبوية وعلى مختلف مستويات القتال ، وكانوا يثبتون جبهة أو أكثر بهذا الأسلوب الذى استخلصوه من الحرب العالمية الثانية ويحشدون مجهودهم الرئيسى للهجوم على جبهة أخرى كانت دائما ، خلال الجولات الثلاث الماضية (٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧) ، هى الجبهة المصرية ايمانا منهم بأن هزيمة مصر هى هزيمة كل العرب .

---

(١) جاءت هذه الفكرة لاول مرة فى دراسة جادة أعدها المؤرخ العسكرى : اللواء حسن البدرى .

وعلى نحو ما قام خط الدفاع البريطاني فى علم حلفا ، قام خط الدفاع الاسرائيلى على جبهة قنـــاة السـويس ولكن مع فارق كبير فى المساعة والتحصينات اختلفت حسب التطور السريع المتلاحق الذى طرأ فى مجال التسليح خلال الآونة الأخيرة ، ولكن كان الجوهر واحدا وطبقوا خلاله الفكرة العامة والتى اكتسبوها منذ ٣٠ عاما فى صحرائنا الغربية • ولذلك يجدر بنا أن نلم بفكرة عامة عن الخط الدفاعى البريطانى فى علم حلفا قبل أن نتناول خط بارليف •

كان خط علم حلفا يستند على مانع صناعى مكثف يتكون من عدة حقول للألغام والأشراك الخداعية كانت تضم حوالى ٥ ملايين لغم وشرك خداعي ، وفى الخلف حشد البريطانيون الفرقة السابعة المدرعة لتباشر مهمة الهجوم المضاد عندما تحاول قوات المحور اجتياح المانع الصناعى الأمامى ، وبعد ذلك اعتمد البريطانيون على القوة الجوية الهائلة التابعة للحلفاء والموجودة فى صحرائنا الغربية وقتذاك لتحقيق التفوق الجوى فى سماء المعركة ومهاجمة قوات المحور أثناء « الفترة الحرجة خلال فتح الثغرات فى المانع الصـــناعى الأمامى بغيـــة التوغل داخـل الدفاعات البريطانية » •

خط ال ٣٠٠ مليون دولار

وشاء القدر أن يتوفر لاسرائيل مانع طبيعي (قناة السويس) تبعوة بمانع صناعى (خط بارليف) أقوى بكثير من المانع البريطاني ثم ساعدتهم الولايات المتحدة الأمريكية فى امتلاك واحد من أقوى وأحدث أسلحة الطيران فى العالم يفوق بكثير كل القوة الجوية للحلفاء فى غرب أفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت الدفاعات الاسرائيلية فى سيناء تضم المكونات التالية :

١ ـ مانع مائى طبيعى يتمثل فى قناة السويس التى تمتد لمسافة ١٦٣ كيلو مترا تصل سرعة التيار فى القطاع الجنوبى منها الى ١٫٥ متر فى

الثانية وارتفاع المد والجذر الى ٥ر١ متر (لاحظ أن القطاع الجنوبي كان منطقة عمل الجيش الثالث) ٠

٢ ـ سلسلة موانع صناعية فيما يسمى بخط بارليف الذى يصل طوله الى ١٧٥ كيلو مترا ، في خط مواز للساحل الشرقي لقناة السويس ، وبعمق ١٠ كيلو مترات على هذه الضفة ويتكون من :

(أ) سد ترابي يرتكز مباشرة على الساحل الشرقى لقناة السويس يتراوح ارتفاعه ما بين ١٥ ، ٢٠ مترا (ويصل الى أعلى مستوى له امام الجيش الثالث أيضا) وبزاوية ميل عمودية (تتراوح ما بين ٨٠ درجة و ٩٠ درجة) ولقد كان هذا السد وليد تجربة القتال فى فيتنام وثبت بالتجارب العملية التى أجريناها داخل أراضينا أنه ليس هناك سلاح فى العالم يستطيع أن يؤثر على هذا السد رغم أنه مبنى من مادة هشة لا قيمة لهـا ٠

(ب) ١٩ موقعا حصينا تشمل ٣٠ نقطة قوية يصل عمق كل منها الى ٥٠٠ متر ترتكز على المحاور الرئيسية المحتملة لتقدم قواتنا وكانت هذه النقطة تتحكم فعلا فى الاتجاهات السليمة لتنزيل المعابر والمعديات التى سنستخدمها أثناء مرحلة العبور ٠

وتضم هذه النقطة ٢٠٦ ملجا ثقيلا و ٤٦٢ حفرة أسلحة ودبابات محصنة بالحد الذى يوفر حماية تامة للأفراد والمعدات من القصف الجوى والأرضى ٠

(جـ) ٧٣ نطاقا من حقول الألغام والأسلاك الشائكة تحيط بهذه النقط من جميع الجهات المحتملة لتقدم قواتنا ٠

(د) عدد من مستودعات النابالم والمواد الملتهبة موصلة بمواسير الى النقط القوية ومنها الى سطح القناة بحيث يمكن فى ثوان وجيزة اشعال سطح القناة وتحويلها الى قطعة من الجحيم فور اكتشاف عبور قواتنا ، ويزيد من بشاعة هذا المانع أن وسيلة العبور فى مراحله الأولى

تضم أساسا قوارب من المطاط (الدنجى) الذى يعتبر من المواد شديدة القابلية للاشتعال ٠

(هـ) تجهيزات هندسية على مسافة تتراوح ما بين ٣ و٥ كيلومترات تحتلها قوات « الاحتياط القريب » ووحدات مدفعية ميدان ٠

(و) تجهيزات هندسية أخرى على مسافة ١٠ كيلو مترات تحتلها قوات « احتياطية بعيدة » ووحدات مدفعية ميدان بعيدة المدى ٠

(ز) نقطة ملاحظة ومراقبة فوق أبراج عالية تراقب نشاط قواتنا ليلا ونهارا سواء كان النشاط بريا أو جويا وبأعماق كبيرة غرب القناة ٠

٦ ـ خنادق للمواصلات تربط بين هذه النقط وبعضها ويستخدمها الأفراد فى الانتقال من مكان لآخر ودون الخروج فوق سطح الأرض ، كذلك تستخدم هذه الخنادق في الامداد بالتعيين والذخيرة الذى يوجد منها بالخط تكديس ادارى يكفي لمدة شهر كامل وذلك بالاضافة الى استخدامها فى اخلاء الجرحى والمصابين الى العناصر الطبية المنتشرة فى هذا الخط ٠

وقد أنفقت اسرائيل على هذا الخط حوالى ٣٠٠ مليون دولار واستخدم في بنائه الحجارة وقضبان وفلنكات السكك الحديدية فى سيناء ، وجاء تحصين الخط بالحجم والسمك الواقى من جميع الأسلحة المعروفة٠ووصفته الدوائر الغربية بأنه « تجسيم حى للابداع الهندسى العسكرى الاسرائيلى » وقال عنه حاييم بارليف صاحب فكرة بنائه : « من المستحيل على القوات المصرية اجتياز هذا الخط الذى يشكل خطرا دائما » واطمأن الاسرائيليون وكان لهم أن يطمئنوا ٠

من كان يحلم ؟

لقد استطاع الاسرائيليون أن يحققوا هذا الهدف المنشود بفضل العمق الاستراتيجى الهائل الذى اكتسبته اسرائيل بعد أن تمركزت فى الأراضي التى احتلتها بعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، والذى أصبح يتجاوز ٤٠٠ كيلو متر بعد أن كان لا يتجاوز ١١٠ كيلو مترات فى أوسع أجزائه

قبل هذه الحرب المشئومة الأمر الذى جعل موشى ديان يصرح للصحفيين فى يوم ١٣ يونيو ١٩٦٧ قائلا : « من كان يحلم بأمن كهذا أو بحدود كهذه بعد أسبوع واحد فقط » .

ولأن الطابع الاسرائيلى هو الحرص البالغ فان القيادة العسكرية الاسرائيلية لم تكتف بالتجربة التاريخية فى « علم حلفا » ونجاح فكرة هذا النمط من الدفاع ضد قوات المحور التى كانت تجتاح قوات الحلفاء بسهولة فائقة خلال هذه الآونة الى أن منيت بهزيمة بالغة فى معركة « علم حلفا » . وخلال الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر عام ١٩٦٩ بدأت مناورات الشتاء فى اسرائيل وكان الهدف الرئيسى منها هو اختبار الدفاعات التى اقامتها فى مواجهة القوات المصرية .

وقد أجريت هذه المناورة فى المنطقة الواقعة عند مواقع خط بارليف ما بين مضايق سيناء الغربية والضفة الشرقية لقناة السويس ، أى نفس المنطقة التى ستشهد أى هجوم مصرى مقبل ، واستغرقت هذه المناورة خمسة أيام كاملة اشتركت فيها مجموعتا عمليات تتألف من أربعة ألوية مدرعة وثلاثة ألوية ميكانيكية وثلاث كتائب من المظليين خلاف وحدات الدعم والمعاونة الأخرى .

وخلال هذه المناورة اختبرت القيادة الاسرائيلية صلاحية خطة الدفاع فى جبهة سيناء ، وبالطبع خرجت منها بتعديلات على الخطة الأصلية وبدأت اسرائيل فى تجهيز مرابض نيران للمدفعية الميدانية والصواريخ ـ أرض أرض ، خلف تجهيزات خط بارليف واختارت أماكن حشد الاحتياطيات التكتيكية القريبة والبعيدة حول منطقة المضايق ثم الى الشرق منها ، وفى قلب (صحن سيناء) خلف المضايق قامت بمركزة الاحتياطى العام لجبهة سيناء (الاحتياطى الاستراتيجى) فى حالة تأهب مستمر لصد اى هجوم مصرى عبر قناة السويس .

كذلك اتضح لاسرائيل ، بعد هذه المناورة ، أنها ستعتمد اعتمادا كبيرا على قواتها الجوية فى المراحل الآتية :

ـ قصف القوات المصرية بكثافة قبل واثناء فترة العبور ·

ـ القصف الشديد المركز لرءوس الشواطىء التى سيحاول المصريون اقامتها على الضفة الشرقية لتثبيت قواتهم ·

ـ قصف المعابر وكبارى الاقتحام التى سيبنيها المصريون عبر القناة ·

ـ معاونة قوات الهجوم المضاد الاسرائيلية فى معاركها التصادمية مع القوات المصرية التى قد تنجح في العبور ، ومن هنا اهتمت اسرائيل اهتماما بالغا بتزويد سلاحها الجوى بأحدث المعدات وانواع التسليح القادرة على سحق أى هجوم من هذا الاتجاه (وسنرى ذلك بالتفصيل أثناء تناول السلاح الجوى الاسرائيلى) ·

وهكذا فاقت خطة الدفاع الاسرائيلية عن سيناء ، خطة دفاع الجيش الثامن البريطاني فى علم حلفا ، وذلك من حيث :

ـ صعوبة الموانع الصناعية التى أقامتها اسرائيل ومدى فاعليتها ·

ـ مدى فاعلية القوة الجوية الاسرائيلية التى ستتعامل مع قوات الهجوم المصرى ·

ـ حجم الاحتياطيات المكلفة بالهجوم المضاد وتعدد خطوطها ومناطق تمركزها ·

لا ينسون دروس التاريخ

وبالنسبة للبند الأخير (تعدد خطوط الاحتياطى) استفادت اسرائيل استفادة كاملة من تجربة خط ماجينو الفرنسى والكارثة التى حلت به وبالدولة الفرنسية بأكملها عندما نجحت قوات المحور فى اختراقه فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ ولم يكن العسكريون الفرنسيون وقتذاك يملكون احتياطيات استراتيجية فى الخلف لتقوم بمهمة الهجوم المضاد فتحول خط ماجينو العظيم الى خط دفاع « جامد ثابت وسلبى » على حد تعبير الجنرال مونتجمري ·

ووصف ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية هذه الواقعة الشهيرة فى كتابه عن تلك الحرب قائلا : « لقد

غرقت فرنسا لأذنيها الى هذا القدر الفاضح من نمط الدفاع الثابت الجامد فاستنزفت كل قواها فى احتلال خط ماجينو اللعين وذلك بكل ما تملكه من قوات بحيث لم يبق لها احتياط استراتيجى يضفى على دفاعنا حرية الحركة والايجابية ويصبغه بالمرونة والحيوية » .

لذلك لم يكن دفاع اسرائيل عن جبهة سيناء دفاعا ثابتا جامدا سلبيا ينتهى بانتهاء حدود خط بارليف بل تجاوز هذا الخط بكثير فى أنساق متعددة تحتشد فى أعماق سيناء يساعدها على خفة الحركة أنها تتكون من قوات مدرعة وميكانيكية ومشاة محمــولة تساعدها معداتها الحديثة على الوصــول بأقصى سرعة الى حافة القناة او اى مكان ينجح المصريون فى اختراقه .

وكما كان دفاع الجيش الثامن البريطانى فى علم حلفا يرتكز على مانعين طبيعيين فى الشـمال والجنوب (البحر الأبيض المتوسط شـمالا ومنخفض القطارة جنوبا) ومانع صناعى فى الغرب (حقول الألغام الهائلة) ، وكانت دفاعات الجيش الاسرائيلى فى سيناء ترتكز ـ أيضا ـ على البحر الأبيض المتوسط شمالا وخليج السويس والبحر الأحمر جنوبا (وهما أضخم بكثير من منخفض القطارة) ثم مانع طبيعى فى الغرب (قناة السويس) يتلوه مانع صناعى هائل (السد الترابى) ثم سلسلة موانع وحصون خط بارليف التى شرحناها من قبل ، والتى تفوق مكوناته بكثير مانع الخمسمائة مليون لغم الذى أوقف هجوم قوات المحور فى صيف عام ١٩٤٢ .

طريق واحـد للهجوم

وبذلك كان لاسرائيل أن تطمئن الى عدم حدوث التفاف أو مهاجمة من الأجناب على جبهة سيناء فان طبيعة مسرح القتال وتجهيزاته الصناعية ومكوناته الطبيعية تفرض على المصريين طريقا واحدا للهجوم : هو قنـاة السويس كذلك اطمأنت اسرائيل أن خصمها لن يستطيع تجاوز المانع الأمامى وطريق الاقتراب الوحيد اليها بعملية ابرار ضخمة وتسلل الى الخطوط الخلفية محدثا هذا الذعر المدمر بين رجالها على الخطوط الأمامية

عندما يشعرون أن العدو قد تجاوزهم ويقطع الآن في مؤخرتهم فتسود الفوضى والانهيار بين صفوفها كما حدث للجيش الايطالي في خط «بانزيسا» أمام النمسا . خلال الحرب العالمية الاولى (وقد اطمأنت اسرائيل لذلك بسبب تعدد انساق الاحتياطي التكتيكي والاستراتيجي القادرة على التعامل مع أية قوات تنجح في توصلها بأية وسيلة حديثة الى ما وراء الموانع الأساسية على خط القناة) .

ولقد كان المفكر العسكري البريطاني « ليدل هارت » هو أول من نبه الى أن الاستراتيجية الاسرائيلية تدين بالكثير لتجارب القتال البريطانية . وأن اسرائيل في مختلف الجولات بينها وبين العرب طبقت نظريته الشخصية عن الاقتراب غير المباشر والدفاع المرن . وأن ذلك جاء كنتيجة منطقية لاشتراك عديد من الضباط الاسرائيليين — وعلى رأسهم موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلي الذى عمل في الخدمة بين صفوف القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية .

الاحتياطي الطائر

ولكن ليس معنى ذلك أن الخطوط العريضة للاستراتيجية الاسرائيلية اقتصرت على تجارب الحرب العالمية الثانية بصفة عامة وتجارب القتال التى خاضتها القوات البريطانية بصفة خاصة ، لقد كان الفكر الصهيوني أوسع من ذلك بكثير وكان يستفيد من كل المعارك التي تدور في أى مكان . وقد تبلور هذا الاتجاه بصورة واضحة خلال الحرب الفيتنامية وحصلت اسرائيل على نصيب كبير من تجارب هذه الحرب .

ولقد كان أبرز ما اقتبسته اسرائيل — في مجال الدفاع — من تجربة القتال في فيتنام هو الدور الحيوى الذى تلعبه طائرات الهليكوبتر في معارك الدبابات ، أن تزود الهليكوبتر بصواريخ مضادة للدبابات يجعل منها سلاحا فعالا ضد مختلف أنواع المدرعات بما تحققه هذه الطائرات من سرعة وخفة حركة وقدرة على المناورة تصبح أمامها الدبابة صيدا سهلا ، وذلك في الوقت الذى لا تستطيع فيه الدبابة أو المدرعة أن تفعل أى شيء حيال هذه الطائرة التى تتشعب استخداماتها يوما بعد يوم .

وقامت اسرائيل بتجهيز أعداد كبيرة من طائرات الهليكوبتر التى اشترتها من الولايات المتحدة ـ من المرجح أن تلك الطائرات من طراز « بل ٢٠٦ ايه جت رينجر » وأنها وصلت الى اسرائيل فى عام ١٩٧٢ ـ بصواريخ مضادة للدبابات وأطلقت على هذه التشكيلات الحديثة اسم : «الاحتياطى الطائر» الذى أصبح يشكل نسقا جديدا من أنساق الاحتياطيات الاسرائيلية المتعددة داخل جبهة سيناء ٠

وكان هذا الاتجاه الجديد هو آخر ما أضافه الاسرائيليون على مبدأ الدفاع المرن الذى اقتنصوا به واعتنقوا فكرته ، وأضاف هذا الاتجاه مرونة أكثر للدفاعات الاسرائيلية وقدرة كبيرة على مجابهة أى اختراق أو توغل داخل خطوط الدفاعات الاسرائيلية وذلك بسرعة فائقة وبكفاءة تامة لم يكن ليحلم بها أولئك الذين قادوا معركة « علم حلفا » ٠

الأسلحة التى واجهناها

ولسنوات طويلة كانت أحدث الأسلحة والمعدات العسكرية تتدفق على اسرائيل (٣ مليون و١٥٥ الف نسمة) حتى تحولت الى ترسانة ضخمة لأحدث أنواع الأسلحة فى العالم فى محاولة مدروسة ـ بل مؤامرة عالمية ـ للحيلولة بيننا وبين مجرد التفكير فى الحل العسكرى المسلح ٠

قبل حرب أكتوبر كانت تلك الترسانة قد استوعبت أقصى مايمكن أن تتحمله من أسلحة ومعدات اما فى صورة صفقات كاملة جاءتها فى شكل معونات من الولايات المتحدة ، أو صفقات يتم تغطيتها من ميزانية الدفاع الاسرائيلية التى بلغت فى السنة المالية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ ، ٥٣٠٠ مليون ليرة اسرائيلية اى ما يوازى ١٢٤٧ مليون دولار فى حين كان اجمالى الدخل العام ٦٢٠٠ مليون اى كان نصيب الفرد الاسرائيلى الواحد من الأسلحة المشتراه ٤٧٠ دولارا ٠

ولتعويض ضآلة عدد سكان اسرائيل بالنسبة لجيرانها العرب ، فان نظام التجنيد هناك يشمل الرجال والنساء بحيث يقضى الرجال ٣ سنوات فى الخدمة الالزامية وتقتصر على ٢٠ شهرا بالنسبة للنساء ، هذا بالاضافة

الى دورات تدريب سنوية لقوات الاحتياطى التى تعتمد عليهم اسرائيل اعتمادا كبيرا ٠

وفى عام ١٩٧٣ ـ قبل نشوب حرب أكتوبر ـ وصل اجمالى أفراد القوات المسلحة الاسرائيلية الى ٢٥ ألف جندى عامل و١٥٢ ألف مجند مع الترتيب المحكم الدقيق ليقفز هـذا العدد الى ٣٠٠ ألف رجـل خلال ٧٢ ساعة من اعلان التعبئة العامة ، وكان توزيعهم كالآتى :

الجيش الاسرائيل

بالنسبة للجيش ، أو القوات البرية كان هناك ١١٥٠٠ جندى عامل و١٥٠ ألف مجند ، من بينهم ١٢ ألف امرأة ، يرتفع عددهم الى ٢٧٥ ألف مقاتل بعد اعلان التعبئة ليكونوا الوحدات والتشكيلات الآتية :

ـ ١٠ ألوية مدرعة ٠

ـ ٩ ألوية مشاه ميكانيكية ٠

ـ ٥ ألوية مشاه ٠

ـ ٥ ألوية مظلات ٠

ـ ٣ ألوية مدفعية ميدان ٠

وكان تسليح تلك القوات كالآتى :

ـ عدد غير معلوم من الدبابات « ام ـ ٦٠ » التى تعتبر أحدث دبابة امريكية ٠

ـ ٤٥٠ دبابة « ام ـ ٤٨ » مزودة بمدفع عيار ١٠٥ ملليمترا ٠

ـ ٢٥٠ دبابة « بن جوريون » (وهى عبارة عن الدبابات البريطانية طراز « سنتوريون » مزودة بمدافع فرنسية عيار ١٠٥ ملليمترا) ٠

ـ ٧٠٠ دبابة سنتوريون ٠

ـ ٢٠٠ دبابة سوبر شيرمان (مزودة بمدفع ١٠٥ ملليمترا) ٠

ـ ١٠٠ دبابة « تى ـ ٦٧ » ٠

ـ عدد غير معـلوم من العربات المدرعة طـراز « ستاج هاوند »

و « ايه·ام·ال ــ ٦٠ » و « ايه·ام·ال· ــ ٩٠ » ·

ــ حوالى ألف عربة نصف جنزير من طراز « ام ــ ٢ » و « ام ــ ٣ » ·

ــ عدد غير معلوم من ناقلات الجنود المدرعة طراز « ام ــ ١١٣ » ·

ــ ٣٥٢ مدفعا عيار ١٥٥ مم و ١٠٥ مم بالاضافة الى عدد غير معلوم من المدافع الثقيلة عيار ١٧٥ ملليمترا الذى يعد أقوى مدفع فى الولايات المتحده . ومن هذه المدافع أعداد غير معلومة محمولة على شاسيهات دبابات « شيرمان » ·

ــ ٩٠٠ مدفع هاون عيار ١٢٠ ملليمترا و ١٦٠ ملليمترا محمولة على شاسيه دبابات « ايه·ام·اكس » الفرنسية ومدافع هاوتزر وعيار ١٢٢ و ١٣٠ ملليمترا ·

ــ قواذف اطلاق صواريخ عيار ٢٤٠ ملليمترا ·

ــ مدافع مضادة للدبابات ذاتية الحركة عيار ٩٠ ملليمترا ومدافع عديمة الارتداد عيار ١٠٦ ملليمترا محمولة على سيارات جيب ·

ــ صواريخ مضادة للدبابات طراز « كوبرا » و « اس·اس ــ ١٠ » و « اس·اس ــ ١١ » وهى صواريخ موجهة بالسلك ·

ــ مدافع مضادة للطائرات عيار ٢٠ و ٣٠ و ٤٠ ملليمترا ·

ــ صواريخ أرض ــ أرض طراز « اريحة » يصل مداها الى ٢٨٠ ميلا ·

القوات البحرية

أما بالنسبة للقوات البحرية الاسرائيلية فكانت تضم ٣٥٠٠ مقاتل عامل وألف مجند يصل مجموعهم بمقتضى خطة التعبئة الى ٥ آلاف مقاتل (منهم ٥٠٠ من الكوماندوز) مسلحين بالآتى :

ــ ٢ غواصــة ·

ــ ٢ مدمرة ·

ـ ١٢ زورق دوريات سريع مزودة بصواريخ جابرييل سطح ـ سطح ٠

ـ ٤ زوارق طوربيد ٠

ـ ١٢ زورق دوريات صغير (حمولته أقل من ١٠٠ طن) ٠

ـ ١٠ مركبات ابرار بحرى (منها ٣ أقل من حمولة ١٠٠ طن) ٠

وهي فخر المؤسسة العسكرية الاسرائيلية والعماد الاكبر للقوات المسلحة هناك ، اذ آن طبيعة عمل السلاح الجوى تتماشى تماما مع الدول ذات العدد القليل من السكان ، وتستطيع الأسلحة الجوية أن تعوض هذا النقص بكفاءة هائلة ، وكان هـذا هو السبب الأول وراء استراتيجيـة اسرائيل في السعي الى التفوق الجوى وساعدتها فى ذلك الى أقصى حد ، الولايات المتحدة الأمريكية بما تملكه من أسلحة فعالة ومتنوعة فى هذا المجال توصلت اليها وطورتها بناء على خبرات القتال العديدة في منطقة جنوب شرق آسيا ٠

وكانت القوات الجوية الاسرائيلية قبل حرب أكتوبر تضم ١٠ آلاف مقاتل عامل وألف مجنـد يزداد عددهم الى ٢٠ ألف مقاتل بعـد التعبئة ومزودين بالآتى :

ـ ٩٠ قاذفة مقاتلة ومقاتلة اعتراضية من طراز « فـ ٤تى فانتوم » التي تعتبر أقوى طائرة قتال فى العالم وعبارة عن قلعة طائرة من أحدث أنواع الأسلحة والمعدات الأليكترونية ٠

ـ ٦ طائرات استطلاع من طراز « آر ٠ ف ـ ٤ تى » وهو طراز خاص من الفانتوم معد لعمليات الاستطلاع الجوى ٠

ـ ١٢٥ قاذفة مقاتلة من طراز سكاى هوك التي تحل محل الواحدة منها ١٢٣٠ كيلو جرام من القنـابل بالاضافة الى المدافع والصـواريخ المختلفة ٠

ـ ٥٠ قاذفة مقاتلة ومقاتلة اعتراضية من طراز « ميراج ٣ سى » ٠

ـ قاذفة قنابل خفيفة من طراز « فوتور » ٠

ـ ٢٧ قاذفة مقاتلة من طراز « ميستر ٤ أ » ٠

ـ ٣٠ قاذفة مقاتلة من طراز « أوراجان » ٠

٩ ـ مقاتلات اعتراضية من طراز « سوبر ميستير » ٠

ـ ٨٥ طائرة تدريب من طراز ماجستيز مجهزة لعمليــات الهجوم الأرضى ٠

ـ ١٠ طائرات نقل من طراز ستراتو كروزر (منها طائرتان للتزويد بالوقود فى الجو) ٠

ـ ٢٠ طائرة نقل من طراز نور أطلس ٠

ـ أكثر من ٧٥ طائرة هليكوبتر من طرازات مختلفة ٠

ـ عدد غير معلوم من طائرات الاستطلاع بدون طيارين من طــراز « فايربى ـ ١ » و « شكار » ٠

ـ ٨ بطاريات صواريخ أرض ـ جو من طراز هوك ٠

بالاضافة الى كل ذلك كان هناك حوالى ١٩ ألف مقاتل ضمن مايسمى بقوات « ناحال » (١٥ ألف) وقوات حرس الحدود (حوالى ٤ آلاف) ٠

وكان علينا أن نواجه كل هذه الأعداد ، بكل تلك الأسلحة والمعدات المتمركزة داخل مواقع متميزة على قواتنا ، بل كان معظمها من الحصون المنيعة ٠٠ حتى الشعراء منا لم يحلموا بارتيادها ٠

« دريد نوط »

وبهذا ـ وبناء على فكرة بريطانية مرة أخرى ـ أصبحت الجبهــة الاسرائيلية فى سيناء نوعا من القلاع الحصينة التى لا خوف عليها تماما مثل المدمرة البريطانية « دريد نوط » التى بناها البريطانيون فى سرية تامة عام ١٩٠٦ وجهزوها بعشرة مدافع عيار ١٢ بوصة فى أبراج مزدوجة وكانت تفوق اية سفينة قتال فى العالم ، سواء بالنسبة للسرعة أو قوة النيران ، وأصبحت جاهزة للعمل فى عام ١٩١٤ مع بدء الحرب العــالمية الأولى فكانت ايذانا لمرحلة جديدة فى حرب البحار وكانت بالفعل ـ كما تعنى الترجمة الحرفية لاسمها ـ لا خوف عليها بالمرة ٠

المعجزة المحسوبة

● المعجزة المحسوبة

من هنا كانت المشورة التى أجمع عليها كل الخبراء والقادة الأجانب الذين زاروا الجبهة المصرية طوال فترة وقف اطلاق النار وشاهدوا على الطبيعة الدفاعات البرية الاسرائيلية ـ ان العبور شبه مستحيل وأن الموانع الموجودة أمام القوات المصرية موانع شيطانية لا قبل لقوة نظامية مهمـــا بلغت كفاءتها واستعداداتها بعبورها واحتواء نطاقاتها المتعددة .

اولويات المستحيل

لم يستمع القادة المصريون الى نصائح الخبراء الأجانب وبدأوا يعملون بانفسهم لتحرير الأرض باى ثمن وكانت هناك مجموعة من الأولويات أمام القوات المصرية فرضت نفسها من واقع طبيعة مسرح العمليات على هـــذه الجبهة وجاءت كما يلى :

أولا : يجب وقف ضخ النابالم والمواد الملتهبة من مستودعاتهـــا الى سطح قناة السويس وذلك قبل البدء فى عملية العبور ودون أن يلاحظ العدو ذلك .

ثانيا : احداث عدة ثغرات فى السد الترابى الذى لا تؤثر فيه أى

أسلحة وبالحجم الكافي لمرور المدرعات والمركبـــات المختلفة وأسلحتنا الثقيلة وذلك في أقصر وقت ممكن ٠

ثالثا : ازالة نطاقات وحقول الألغام والأسلاك الشائكة (٧٣ نطاقا) حول نقط ومواقع خط بارليف وذلك في أقصر وقت ممكن ٠

رابعا : اقتحام مواقع خط بارليف والتوغل داخلها بسرعة قبل أن تبدأ مدفعية الميدان الاسرائيلية (المتمركزة خلفا عند منطقتي الاحتياطي القريب والاحتياطي البعيد) ٠ في فتح نيرانهـا على جنودنا خاصـة وأنها ترصد هذه النقط بدقة متناهية مما يجعل نسـبة الاصابة ١٠٠ ٪ ، ويكون جنـودهم خـلال هـذه الفترة قابعين في أمان داخل مواقعهم المحصنة وقد أغلقوا أبوابها الفولاذية ٠

خامسا : يجب تعطيل وصول الاحتياطيات الخلفية (القريبة والبعيدة والاحتياطي الاستراتيجي فيما وراء المضايق) ٠ الى حافة القناة في الوقت الذي تكون فيه قواتنا مازالت في فترات العبور الحرجة ٠

سادسا : يجب أن يصمد رجال المشاة المصريون وجها لوجــه أمام مدرعات العدو حتى تلحق بهم مدرعاتنا ٠

سابعا : يجب بناء الجسور عبر قناة الســـويس في ٥ ساعات على الأكثر حتى تتحرك معداتنا ووحداتنا الثقيلة عبر قناة السويس ٠

ثامنا : يجب الحفاظ على هذه الجسور سليمة وصالحة للاستعمال بالرغم من أي نشاط جوى يقوم به العدو وحتى لا تنعزل قوات المشاة عن مدرعاتنا وأسلحتها الثقيلة وخطوط امدادها من الغرب ٠

تاسعا : يجب استمرار تدفق قواتنا من جميع الجهـــات والأماكن لتشتيت المجهود الرئيسي للعدو وبنـــاء عدة (رءوس شواطيء) لتأمين قواتنا على الضفة الشرقية للقناة ٠

عاشرا : يجب الحد من فاعلية الســـلاح الجوى الاسرائيلي الذى

سينشط مسعورا لمهاجمة قوات العبور المصرية التى تقف فى العراء فوق صحراء سيناء تتحدى جيش الدفاع الاسرائيلى .

كيف كان يمكن اجراء كل هذه الاستعدادات وقواتنـــا البرية على الضفة الغربية من القنـــاة تقف وجهـــا لوجه على مرمى البصر للقوات الاسرائيلية وتحت الملاحظة المباشرة لأبراج المراقبة العالية ونقط الملاحظة العديدة التى أقامها العدو على الضفة الشرقية من القناة يراقب منها ليلا ونهارا النشاط اليومى لقواتنا ؟

لقد بلغ عدد بنود الخداع التى اتبعناها أكثر من ٦٥ بندا خداعيا في مرحلة ما يسمى « بضباب ما قبل المعركة » ظل رجال موجة العبور الأولى قابعين داخـــل خنادقهم بكامل أسلحتهم ومعداتهم لمدة زادت عن ١٢ ساعة دون أن يرفع أحدهم رأسه ويراه العدو بكامل معداته وملابسه الميدانية .

وظلت باقى القوات حتى آخر لحظة لا تبدى استعدادا أو توترا بل كانت هناك جماعات منهم قد خصصت للاستحمام في مياه القناة وغسل الملابس وجماعات أخرى تسترخى تحت أشعة الشمس وأفراد يقومون « بمص القصب » وغيرهم يمارس أنواعا مختلفة من الألعاب الرياضية .

عندما توقف الزمن

وظلت هذه الصورة قائمة دون أى افتعال وكأنما الزمن قد توقف عندها . وقبل دقائق من الساعة الثانية ظهرا خرج فجأة رجال مدفعية الميدان وانتزعوا شباك التمويه من فوق آلاف المدافع الثقيلة والمتوسطة والمدافع الصاروخية والمدافع المضادة للدبابات والهاونات بمختلف أعيرتها وفى الساعة الواحدة و ٥٧ دقيقة انطلقت جميع هذه المدافع الى أهـــداف العدو القريبة والبعيدة فى غلالة كثيفة من النيران فيما يسمى بمرحلة « التمهيد للمعركة » .

ركزت المدفعية ضربها على مواقع خط بارليف ومناطق الاحتيـــاط

القريب والاحتياطي البعيد ومراكز القيادات المختلفة ، وفي ذلك كانت مدفعية الميدان المصرية تغطى المسافة من بضعة أمتار على الضفة الشرقية للقناة الى حوالى ٣٠ كيلو مترا داخل أعماق سيناء واستمرت هذه القصفة التمهيدية ٣ دقائق كانت خلالها طائرات الضربة الجوية الأولى قد عبرت قناة السويس على ارتفاع منخفض ـ لا تظهر معه فى شـــبكات الرادار الاسرائيلية ووصلت فعلا الى أهدافها الحيوية داخل سيناء ٠

تسلسل الصـــدمة

ومن أبهر النتائج لهذه القصفات التمهيدية أنها أثرت حتما على مواقع الاتصالات الخطية واللاسلكية ومواقع الانذار المبكر (نقط المراقبة بالنظر التابعة لشبكة الدفاع الجوى الاسرائيلية كما شرحنا ذلك فى فصل الدفاع الجوى الاسرائيلي والتى تعتبر وسيلة الانذار الأول ضد الطيران المنخفض) ٠ التى تنتشر بين تحصينات خط بارليف الأمر الذى شل فاعلية هـــذا العنصر الحيوى من عناصر الدفاع الجوى الاسرائيلي ومكن طائرات السلاح الجوى المصرى من مفاجأة العدو وظهورها فجأة وبدون توقع فوق أهدافه الحيوية داخل سيناء ٠

ان الهدير المفاجىء لهـــذه المواقع الميدانية ـ وكان الرجال الذين يقفون وراءها هذه المرة يفهمون جيدا العلاقة بين « الظا » والظتا «والجا» «والجتا» والعلاقة بين خط المرور المسطح وخط المرور المنحنى ويلمون بالقواعد الأساسية للرياضيات ، وهى القواعد الحيوية للتمكن من اصابة الأهداف التى لا تراها بالعين المجردة ـ ان هذا الهدير المفاجىء تسبب فى اصابة القوات الاسرائيلية التى تعرضت له بالذهول والصدمة التى تبدأ عادة مع الطلقات الأولى للمعركة وتسرى بين مختلف القوات والقيادات فيما هو أشبه بعملية « التفـــاعل المتسلسل » حتى خرج الوصف الشـــهير واستطاع العرب أن يمسكوا باسرائيل وهى عارية من الملابس ٠

بذلك كانت المفاجأة قد تحققت على مستويين :

ـ المستوى الاستراتيجى (قبل بدء العمليات) ٠

ـ المستوى التكتيكي (عند بدء العمليات وأثناء سير القتال كما سنرى فيما بعد) . عندئذ فقط قام رجالنا بنفخ قوارب العبور وخرج رجال موجة العبور الأول من الخنادق متجهين الى الضفة الشرقية .

رواد العبور

كان رجال الصاعقة وبعض رجال المشاة هم أول من عبر قناة السويس في حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ واتجهوا فورا الى مواسير المواد الملتهبة وقاموا بسدها وتخريب المضخات التي ستضخ هذه المواد من المستودعات الى سطح القناة (خلال هذه المواسير) .

قام رجال الصاعقة أيضا باحتلال مصاطب الدبابات (التي بناها العدو ونصبوا كمائن عندها انتظارا للدبابات الاسرائيلية التي ستسرع لاعتلاء هذه المصاطب وفتح نيرانها على قواتنا العابرة ولم تكن هذه الدبابات تعلم أنها تسرع الى حتفها) .

في نفس الوقت الذي كانت فيه القوارب المطاط تعبر القناة بروفد العبور كانت مقاتلاتنا وقاذفاتنا المقاتلة تعبر سماء القناة وبينما كانت قوات من الصاعقة تعبر القناة كانت قوات أخرى منهم تتجه الى أعماق سيناء ومنطقة جبال سيناء الجنوبية وساحل سيناء الشمالي !! من كل مكان وفي كل مكان رجال الصاعقة يعملون وتقلتهم الى هناك عشرات من طائرات الهليوكبتر في أول استخدام لها بهذه الكثافة من جانبنا .

تسلقوا السد الترابي بسلالم الحبال البدائية وتبعهم رجال المشاة ومعهم عناصر المهندسين يحضرون مفاجأة أخرى للعدو لقد كانت فكرة السد الترابي رائعة من حيث بساطتها ومناعتها وجاء الحل المصري أروع وأكثر بساطة ممثلا في طلمبات المياه التربينية التي تدفع المياه عبر مدفع مائي يعمل بقوة دفع معينة . وانهال التراب وأصبح السد المنيع مليئا بفتحات ضخمة كافية لعبور مدرعاتنا ومعداتنا .

الرحلة الأولى

بدأت رحلة العبور الأولى فى الساعة الثانية وعشرين دقيقة وتولت مدفعية الميدان بأسلوب مبتكر فتح ثغرات عديدة فى حقول الألغام المنتشرة حول مواقع خط بارليف وتدفقت قوات المشاة المصرية ـ ومن خلال هذه الثغرات ـ صوب المواقع الاسرائيلية ، كان العدو يعتقد أننا سنهاجم هذه المواقع من الخلف والأجناب وكان هجومنـــا بالمواجهة ومن الأمام مباشرة ـ عبر حقول الألغام ـ مفاجأة أخرى على المستوى التكتيكى ٠

كان رجال المشاه المصريين مسلحين بقواذف مضادة للدبابات من طراز آر ٠ بى ٠ جى الصغير « وبى ١٠ و ١١ » الذى يصل وزنه الى ٣٥٠ كيلو جراما ومع ذلك حملوه وتسلقوا السد الترابى (٢٠ مترا) فوق سلالم الحبال البدائية ووقفوا وجها لوجه أمام المدرعات الاسرائيلية الثقيلة ٠

الخطأ كل الخطأ أن يعتقد أحد بأننا اعتمدنا فى هذه المرحلة الصعبة على الصواريخ المضادة للدبابات فقد كان عدد هذه الصواريخ ـ حسب تصريح اللواء سعد مأمون ، قائد الجيش الثانى وقتذاك ومساعد وزير الحربية حاليا لشئون العمليات ، محدودا للغاية ولقد كان الفضـــل كله أثناء هذا النزال غير المتكافىء لشجاعة واستبسال رجل المشاة المصرى وكما اعترف بذلك صراحة الجنرال دافيد عازر رئيس الأركان الاسرائيلى ٠

ساعدنا فى ذلك بناء مصاطب للدبابات على الضفة الغربية اعتلتها دباباتنا التى لم تكن قد عبرت بعد وأصبح الميدان أمامها مفتوحا واستطاعت بدورها ـ ومن هذا البعد ـ أن تشتبك مع دبابات العدو شرق القناة ٠

وساعدنا فى ذلك أيضا أن مدافع الميدان على الضفة الغربية كانت تشتبك بدورها مع مدرعات العـــدو على الضفة الشرقية بنيرانها التى صححها رجال من مدفعية الميدان كانوا من بين رواد العبـــور مع رجال الصاعقة والمهندسين والمشاة ٠

فى نفس هذا الوقت كان رجال المهندسين يقومون ببنـــاء كبارى الاقتحام ، واسرع رجال المشاة صـــوب المواقع الحصينة ومعهم مفاجأتين

للعدو أولاهما أنهم هاجموا تلك المواقع بالمواجهة ومن الأمام مباشرة ، على عكس ما توقع العدو تماما ، وثانيهما أن الاسرائيليين كما توقعنا نزلوا فى حصونهم وأغلقوا أبوابها الحديدية وكان رجالنا قد جهزوا معهم مجموعة من الألغام ملتصقة بطريقة خاصة ، وفى ثوان نسفوا البوابات الحديدية واقتحموا الحصون ليدور القتال بالسلاح الأبيض بينهم وبين العدو ، بينما كانت مدافع الميدان الاسرائيلية فى الخلف عند منطقة الاحتياطى القريب والاحتياطى البعيد . قد فتحت نيرانها فعلا على هذه الحصون ظنا منها أن رجالنا ما زالوا بالخارج .

الهجوم المضاد

تحركت قوات الاحتياطى القريب والبعيد لنجدة زملائهم فى مواقع خط بارليف بينما كانت قيادتنا تتحرك لتلحق بقواتها على الضفة الشرقية:

قادة الكتائب وأطقم قياداتها تحركت الى الضفة الشرقية بعد ١٥ دقيقة من بدء القتال .

قادة الألوية وأطقم قياداتها انتقلت الى الضفة الشرقية بعد ٤٥ دقيقة من بدء القتال .

قادة الفرق وأطقم قيادات الفرق وصلت الى الضفة الشرقية بعد ٨٠ دقيقة . لم تكن كبارى الاقتحام قد أنشئت بعد وقام هؤلاء القادة بتسلق السد الترابى شأنهم فى ذلك شأن الجنود وصغار الضباط ووقف الجميع على الضفة الشرقية يستولون على موقع تلو الآخر وتتساقط مواقع خط بارليف كأوراق الكوتشينة .

بعد ساعة بالضبط و ٢٢ دقيقة سقطت أول نقطة حصينة للعدو بين أيدينا عند الكيلو ١٩ جنوب بور سعيد (فى قطاع الجيش الثانى) وبعد ساعة و ٣٠ دقيقة (أى بعد سقوط النقطة الأولى بسبع دقائق) سقطت النقطة الثانية فى منطقة الشط عند علامة الكيلو ١٤٦ (فى قطاع الجيش الثالث) .

وكانت صيحة الله أكبر تغطي الجبهة بأكملها والجنود تتســـابق لتتقدم قادتها حتى أنه عندما بدأ أول هجوم اسرائيلي مضاد من الاحتياطات الخلفية وصلت دبابتان للعدو بالقرب من أحد قادة الفرق في الجيش الثاني فهرع اليه أحد جنوده ليدمر الدبابتين واحدة بالقاذف آر · بي ـ جي والأخرى بقنبلة يدوية مضادة للدبابات ·

وصمدت المشاة المصرية أمام المدرعات الاسرائيلية التي شنت الهجوم المضاد ، ومن بين المشاكل المحسوبة في هذا الصدد أنه كان يلزم امداد العناصر المضادة للدبابات بالذخائر اللازمة في هذه المرحلة الحرجة قبل اتمام بناء الكباري ، وبناء على ذلك وبحساب سابق تم تجهيز عربات جر باليد تشبه عربات « الريكشا » الصينية يجري بها رجل المشـــاة حاملا ذخائر القواذف والصواريخ المضادة للدبابات ، ويتسلق الساتر الترابي ، ثم يستمر في الجري بهـــذه العربة الغريبة ليوزع الذخائر على زملائه المشـتركين في قتال الدبابات ·

ولقد سأل أعضاء الكونجرس الأمريكي ، الذين زاروا مصر بعد وقف اطلاق النيران ، عن الوسيلة التي تغلبنا بها على هذه المشكلة الدقيقة وكان أن شاهدوا بأنفسهم احدى عربات اليد هذه فاندهشوا لهذه البســـاطة المتناهية والدور الفعال الذي قدمته هذه الوسيلة البدائية في واحدة من أحدث الحروب التي شهدها العالم ·

بعد خمس ساعات انتهى المهندسون من بناء كباري الاقتحام بعد جهد رائع وسط النيران المتبادلة من الجانبين وبعد خمس ساعات ونصف ساعة عبرت الى الضفة الشرقية أول دبابة من الجيش الثاني بينما تعطل عبور الدبابات في الجيش الثالث حتى الساعة الثامنة من صباح الأحد ٧ أكتوبر وذلك بسبب سرعة التيار وارتفاع المد والجذر (كما ذكرنا من قبل) وارتفاع مستوى الأرض ومستوى السد الترابي الأمر الذي ألقى على رجال المشاة بالجيش الثالث عبئـــا كبيرا ومع ذلك حطموا جميع الهجمـــات الاسرائيلية المضادة واجتاحوا مواقع خط بارليف ·

الخداع مستمر

ومع موجات العبور الأولى ــ وقبل عبور الدبابات المصرية بوقت طويل قرر قائد الجيش الثانى الاندفاع بعـــدد من الدبابات البرمائية الموجودة فى حوزته وأصدر أوامره بعبور هذه الدبابات الى الضفة الشرقية فى منطقة البحيرات المرة وبلع العدو هذا الطعم وأعلن أن الدبابات المصرية تتدفق باعداد هائلة جدا عبر القناة علما بأن هذه الدبابات كانت محدودة جدا ودخل هذا الاجراء ضمن بنود الخداع التكتيكى ٠

وفى نهاية اليوم الأول كان قد تدفق الى الضفة الشرقية ٨٠ الف جندى مصرى بمعداتهم وأسلحتهم وسقطت بين أيدينا ١٥ نقطة حصينة للعدو واستطعنا فى يوم واحد أن نقيم ٥ رءوس شواطىء على الضفة الشرقية (بينما لم يستطع العـدو أن يقيم غير رأس شاطىء واحد أثناء تسلله غرب القناة واستلزم ذلك منه ٧ أيام كاملة من يوم ١٦ الى ٢٢ وهــو تاريخ وقف اطلاق النيران) ٠

وعندما تحرك الاحتياطى الاستراتيجى الاسرائيـــلى كانت قوات الصاعقة تنتظره هناك فى عمق سيناء بعد أن تم ابرارها بواسطة طائرات الهليوكبتر فى مناطق الاقتراب المحتملة للعدو ودارت المعارك هناك بين رجال الصاعقة بأسلحتهم الخفيفة وبين معدات العدو الثقيلة وكان الرجال يهاجمون الدبابات بالقواذف والقنابل اليدوية المضادة للدبابات والقنابل اللاصقة . قتال آخر غير متكافىء وكان الهدف منه تعطيل وصول هــذه الاحتيـــاطيات حتى تتمكن قوات العبــور من التمركز وتثبيت رءوس الشواطىء التى شيدناها على الضفة الشرقية للقناة ولتصل بعد ذلك اية قوات تستطيع أن توفرها اسرائيل ٠

فى نفس الوقت تم ابرار وحدات أخرى من الصاعقة فى جبال سيناء الجنوبية وعلى ساحل سيناء الشمالى تنصب الكمائن لقوات العـدو وتغير على وحـــداته من آن لآخر فى محاولة لتشتيت مجهود العـدو الرئيسى وامتصاص أكبر قدر من قواته للتعامل مع هذه الوحدات تخفيفا على قوات العبور التى تقوم بالعمل الأساسى ٠

ونجحت المحاولة ورأينا حاييم هرتزوج المعلق العسكرى الاسرائيلى الشهير (والذى لن يصبح شهيرا بعد حرب أكتوبر) يعلن أن قوات الكوماندوز المصرية تتبع أساليب مبتكرة فى القتال وأنهم يحاربون فى كل مكان فى سيناء بين الخطوط الخلفية الاسرائيلية وأنه يجب تصفية عمليات هذه الوحدات قبل أى شئ ٠

كان رجال الصاعقة يحاربون ولا يطلبون طعاما أو شرابا بل اقتصرت طلباتهم على الذخائر ليستمروا فى قتال العدو ، وقد استطاعت كتيبة من قوات الصاعقة أن تصمد ستة أيام فى أحد مناطق اقتراب العدو وثبتت القوة المتقدمة هناك طوال هذه الأيام الستة وعاد معظم رجالها بعد صدور الأوامر اليهم بذلك ، وقد بلغ اجمالى الخسائر التى أحدثتها قوات الصاعقة بين صفوف العدو : ١٠٠٠ قتيل وجريح وتدمير حوالى ٢٠٠ دبابة ومدرعة وبعض طائرات الهليكوبتر علاوة على أسر ١٧٠ اسرائيليا من بينهم ثمانية ضباط ٠ كذلك قام رجال الصاعقة بالاستيلاء على موقع حصين من خط بارليف عند لسان بور توفيق بعد أن احتووا على الموقع بمن فيه واجبروهم على الاستسلام (٣٧ فردا من بينهم خمسة ضباط) ٠ واشتركت قوات الصاعقة فى تحرير مدينة القنطرة فيما يسمى بقتال المدن الذى يدور من بيت الى بيت ويحتاج الى كفاءات خاصة لتفادى أى كمائن أو مفاجآت من جانب العدو المختبى بين سكان المدينة وفى بيوتها ويعد قتال المدن من أصعب أنواع القتال ٠

وفى الوقت الذى كان فيه رجال الصاعقة يقاتلون فى أعماق سيناء بدون طعام أو شراب كان أيضا رجال قواتنا البرية على الضفة الشرقية ـ وحتى على الضفة الغربية ـ يقاتلون ولا يطلبون أى شئ لأنفسهم وكانوا جميعا جنودا وضباطا يكتفون بوجبة واحدة من الطعام ، ولكن كان يطيب لهم جميعا أن يأكلوا تعيينات العدو بعد الاستيلاء على معداته ومواقعه الحصينة ٠

حدث مرة أن حصل بعض جنودنا على أنواع مختلفة من البسكويت والملبس وحتى اللبان وعلب المأكولات المحفوظة من ٣ دبابات دمرناها للعدو وهجرها من فيها ٠ وعندما قابلهم زملاء آخرون شاركوهم فى هذا

« الترفيه ، وطلبوا المزيد فقال لهم زملاؤهم ان هناك كميات أخرى داخل تلك الدبابات الاسرائيلية وكان الوقت ليلا اتجه هؤلاء ووجدوا الدبابات ودخلوها وأخرجوا منها كميات وفيرة ولكنهم لاحظوا أن الدبابات سليمة لم تكن بها اصابة واحدة ، واتضح أنها دبابات اسرائيلية أخرى تركهـــا طاقمها سليمة وفروا من أرض المعركة .

مبالغات ضـارة

حـدث هذا فعـلا ولكنها مرات قليلة تخص أفرادا جبناء وليس كل الجيش الاسرائيلي الذى قاتل بشراسة وعنف للحفاظ على مواقعه ولم يتركها الا لأن رجالنا كانوا أكثر شراسة وعنفا .

وقد صورت احدى المجلات الأمريكية هذه الصورة بوضوح عندما نشرت عن ضابط اسرائيلي برتبة كولونيل (عقيد) اتجه الى قائد فرقته مذهولا وقال : « انهم (يقصد المصريون) يقفون أمام الدبابات مصممين على تدميرها بأسلحتهم الصغيرة ويتحركون فى الجبهة كما لو كانوا فرقا انتحارية كاملة » .

كانت تلك هي الصورة الصحيحة التى رسمها للأسف الشـــديد مراسل أجنبي فى حين لجأ اعلامنا الى المبالغات ، والموضوعات الانشائية ، والتطرف البلاغي ، الذى أصبحنا جميعا نمقته وننفر منه وخاصة بعـد حرب ١٩٦٧ وما صاحبها من مأساة اعلامية كان تأثيرها أشـد من تأثير النكسة على نفوسنا .

لماذا نبالغ وأمامنا قصص حقيقية كلها بطولة واقناع ؟ لقد كان من أمقت الصور التى سمعنا عنها أثناء المعركة تلك الصورة التى تقول : « لقد كان رجالنا يلقون بأجسادهم أمام الدبابات » - ان الرجال الذين يقومون بهذا العمل لابد وأن يكونوا مرضى وليسوا أبطالا ، لم يكن هناك مقاتل واحد بين صفوفنا وصل الى هذا الحد من الحماقة ليلقى بجسـده أمام دبابة يعلم تماما أنها قادرة على سحقه هو وفرقة بأكملها من الرجال العـزل .

لقد كان رجالنا يقفون أمام الدبابات ، ولكن كان بين أيديهم دائما سلاح يعلمون جيدا أنه قادر على تدمير الدبابة ، وبدون هذا السلاح لم يكن احد منا ليلقى بجسده أمام الدبابات أو المصفحات ، لأنه عمل لا معنى له وان دل على شيء فانه يدل على الحماقة والغباء أو ميول انتحارية مريضة ، ولقد كانت هناك تضحيات كثيرة ولكنها عاقلة وهادفة . أذكر منها ان احد جنودنا [كان هذا الجندى من رجال الاشارة] طلب منه قائده ان يصلح أحد خطوط المواصلات (تليفون ميدانى) لأهميته أثناء سير العمليات . ذهب الجندى البسيط يفتش عن مكان العطل الى ان وجد قطعا بين طرفى السلك التليفونى وهنا أصيب الرجل اصابة بالغة . وعرف أنه سيستشهد لا محالة ، وفي لحظات الاحتضار وقف الرجل بجوار السلك وأمسك بطرفيه بين أسنانه ولاقى ربه وعاد الاتصال بين جهاز التليفون على نهايتى السلك ولم يعد هذا الرجل .

وبعد خمس ساعات ونصف ساعة كما ذكرنا من قبل بدأت دباباتنا تطوى رمال سيناء تحت جنازيرها ، كان رجال المهندسين قد انتهوا من بناء كبارى الاقتحام ، وتستطيع أن تدرك اعجاز هذا العمل اذا تصورت أى جهة مدنية حاولت بناء كوبرى لمرور المشاة فقط على جانبى النيل فى القاهرة وبعيدا عن طلقة واحدة من ملايين الطلقات التى كانت تدوى فوق رءوس رجال المهندسين المصريين الذين كانوا يشيدون هذه الكبارى الحيوية .

حصانة من مرض الخنادق

وعندما دخلت الدبابات كان من المستحيل على أية قوة فى العالم أن تعيد هؤلاء الرجال من حيث جاءوا ، لقد مكث هؤلاء الرجال فى خنادقهم غربى القناة ست سنوات كاملة وهناك مايسمى « بمرض الخنادق » يصيب الجنود الذين يجلسون فيها لمدة طويلة (أشهر على الأكثر) بالتراخى وعدم الرغبة فى القتال ، ولقد أثبت رجالنا أن حبهم لمصر واشتياقهم لتحرير

أراضينا أقوى من أى مرض أو نظرية جوفاء قالها رجل لا يعرف مدى حب المصريين لبلادهم ٠

واسرع رجال المدرعات يلحقون بزملائهم الذين عاشـــوا معهم فى الخنادق ست سنوات كاملة واضطرتهم ظروف المركة أن يتركوهم حوالى ست ساعات كاملة يواجهون معدات العدو الثقيلة وحصونه المنيعة بأسلحة صغيرة : حملوها عبر القناة وصعدوا بها السد الترابى واقتحموا موانع الأسلاك الشائكة وحقول الألغام والتحموا مع العدو يفرغون فيه ذخائرهم ثم يقطعون نفس المشـــوار ليحضروا مزيدا من الذخائر بعربات يجرونها باليد ٠٠ فما حاجتنا الى بطولات بعد ذلك ؟

اسرعت الدبابات فى اشـــتياق تلحق بجنـــودنا الذين توغلوا فى أعمـــاق دفاعات العدو ، وشـــعار رجال المدرعات المصريين هو النصر او الشهادة ولذلك فهم يسمون الدبابات « بالقبور المتحركة » لأنها اما ان تنتصر أو أن تصبح مقبرة حديدية تضم رفات طاقمها بالكامل ، وكانت دباباتنا فى شوق للقـــاء الباتون والـ « ام ٦٠ » و « السنتوريون » وال « ايه ٠ ام ٠ اكس » ٠ ٠

ومنذ اول يوم للقتال بدأت الهجمات الاسرائيلية المضادة ضـــد قواتنا التى نجحت فى العبور ولكن بفضل الحسابات الدقيقة والضربات الناجحة لقواتنا الجوية وقوات الصاعقة ومدفعية الميدان ، وصلت هـــذه الهجمات متأخرة عن « فترة الحرج » التى كنا نمر بهـــا أثناء مرحلة العبور نفسه ، وبفضل صمود رجال المشاة استطعنا أن نصمد فى « فترة الحرج » الثانية أثناء القتال بين مشاتنا ومدرعاتهم وحصونهم المنيعة ، وبفضل عبقرية رجال المهندسين وتفانيهم فى أداء مهامهم استطاعت قواتنا المدرعة وأسلحتنا الثقيلة ان تعبر فى الوقت المناسب لتتمركز وتستعد لملاقاة العدو ٠

لذلك كله لم يكن العبور معجزة ، ويجب أن نعلم جيدا أنه ليس هناك معجزات فى الحروب الحديثة ، هناك تصور وحسابات وتخطيط ثم تنفيذ جيد وبعد ذلك يتحدد النصر أو الهزيمة ، كل شئ كان محسوبا

وكل تصوراتنا كانت سليمة وقام الرجال جميعا بأكثر مما كنا نحلم به .

ولقد بلغت هجمات العدو المضادة ضد رءوس شواطئنا على الضفة الشرقية ، خلال الأيام الثمانية الأولى من القتال ، ١٦ هجمة مضادة استطعنا ان نحطمها جميعا ، وفي يوم ٩ أكتوبر قام لواءان مدرعان بهجوم مضاد ضد قواتنا في مرحلة تطوير الهجوم وتصدت لهما المدرعات المصرية في معارك شرسة على القطاعين الأوسط والجنوبي ودمرت للعدو ١٠٢ دبابة .

وفي نفس اليوم تم تدمير اللواء المدرع الاسرائيلي ١٩٠ وأسر قائده عساف ياجوري ، وقد ظلت قواتنا متفوقة على العدو وتعاون رجال المشاة والمدرعات والطيران ومدفعية الميدان في تدمير المدرعات الاسرائيلية في معارك لم يشهدها العالم من قبل سواء من الناحية العددية أو نوعية النيران وكثافاتها ، وقد استمرت احدى هذه المعارك ستة أيام كاملة من يوم الأربعاء ١٧ أكتوبر حتى يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر الذي هو تاريخ وقف اطـــلاق النيران .

وقد دارت هذه المعركة التاريخية في القطاع الأوسط من قنـــاة السويس ووصفت بأنها أضخم معركة مدرعات عرفها التاريخ العسكري ، وكانت الدبابات المصرية تتقدم صوب الدبابات الاسرائيلية الى مســافات قريبة جدا تريد بهذا أن « تطحنها » ان لم تستطع أن تصيبها بمدافعها ، وهنا صرح الجنرال شموئيل جونين القائد الاسرائيلي لجبهة سيناء قائلا : « ان القوات المصرية تشن هجمات مضادة كثيفة جدا على شــكل موجات وراء موجات وأن المصريين يقاتلون بشراسة انتحـــارية في أعنف رد على تحركاتنا » ثم قال القائد الاسرائيلي : « انهم يفعلون كما فعل الصينيون في كوريا يهاجمون بموجات وراء موجات ويحاربون بعناد شديد » .

« الجالاكسي » في العريش

كانت جميع الاحتياطيات الاسرائيلية قد تحركت بمـــا في ذلك الاحتياطي الطائر المكون من أسراب الهليكوبتر التي تحمل الصـــواريخ المضادة للدبابات وقد استطعنا أن ندمر للعدو ــ وحسب آخــر تصريح للواء فؤاد عزيز غالي القائد الحالي بالجيش الثاني الميداني ــ ٩٢٠ دبابة

وبالطبع كنا قد فقدنا عددا من دباباتنا ولكن كان قد طرأ تطور خطير على سير المعركة ·

كان الجسر الجوى الأمريكي قد بدأ يصل الى اسرائيل وبكثافة كبيرة ابتداء من يوم ١٣/١٠/١٩٧٣ ، واعترفت وزارة الخارجية الأمريكية بذلك وبسبب ضخامة الخسائر الاسرائيلية ـ استخدمت الولايات المتحدة طائرات النقل العملاقة « س ايه جالاكسى » وهى أضخم طائرة نقل عرفها العالم ، وعندما تقف على سطح الأرض فهى تشغل مساحة تماثل نصف مساحة ملعب كرة القدم ، ويرتفع السطح العلوى لذيل هذه الطائرة الى ما يوازى ارتفاع عمارة من ٧ طوابق ·

ان قرار استخدام هذه الطائرة الأولى للنقل الحربى فى سلاح الطيران الأمريكي ـ بل فى العالم أجمع ـ يعكس مدى الخسائر التى لحقت باسرائيل ، ومدى حاجتها الفورية الى كميات هائلة من العتاد والمعدات والا اندحرت اسرائيل الى الأبد ·

وكانت هناك دلالة أخرى لا تقل أهمية ، وهى أن تلك الطائرات هبطت مباشرة فى مطار العريش الأمر الذى يعنى أن اسرائيل كانت تحتاج لتلك المعدات لتدعيم موقفها بسرعة على جبهة سيناء ، وأكثر من هذا ـ الأمر الذى يعكس يأس الموقف العسكرى الاسرائيلى ـ ان الولايات المتحدة أرسلت الى مطار العريش أطقما كاملة من الفنيين الأرضيين المتخصصين فى تفريغ الحمولات الضخمة التى تحملها تلك الطائرات لأن الموقف لم يكن ليتحمل أى تأخير أو محاولات من جانب الفنيين الاسرائيليين الذين يفتقرون الى هذا النوع من التخصص ولم يروا فى حياتهم طائرة بهذه الضخامة والامكانيات ·

وكان أهم ما حملته تلك الطائرات أعدادا هائلة من الدبابات اتجهت فورا الى جبهة القتال فى سيناء لتدعيم القوات الاسرائيلية التى كانت على وشك الانهيار التام ، وقد حصلنا على بعض هذه الدبابات سليمة وقام المراسلون الأجانب فى القاهرة بفحصها ورأوا بأعينهم أن عداد الكيلومترات

لم يزد عن ٢٠٠ كيلو مترا هي المســـافة بين العريش وبين المكان الذي استطاعت فيه قواتنا أن تستولى على عدد من تلك الدبابات ٠

وأكثر من هذا أن الأطقم الاسرائيلية التى كانت تقود تلك الدبابات كانت اطقما مخفضة بمعنى أنها كانت فى معظم الأحوال تتكون من ٣ أفراد (سائق ومدفعجي وقائد) وهو أقل عدد من الأفراد يمكنه تشغيل الدبابة اثناء القتال ، وقد جاء هذا نتيجة لأن اسرائيل خسرت أعدادا كبيرة من رجال المدرعات لم تستطع معها ـ رغم تعبئة طوابق الاحتياطى المختلفة ـ أن توفر أطقم تشغيل كاملة للدبابات الجديدة التى حصلت عليها ٠

كذلك كان من أهم ما حملته الى اسرائيــــل طائرات « جالاكسى » الأمريكية صواريخ حديثة مضادة للدبابات من طراز « تاو » وهو أحدث صاروخ أمريكى مضاد للدبابات بدأ انتاجه فى عام ١٩٦٩ واصبح صالحا للعمليات فى عام ١٩٧٠ ويتكلف الصاروخ الواحد ستة آلاف دولار ، وهو مزود بمحركين يعملان بالوقود الجاف ويتم توجيهه بالسلك ويصلح للعمل من جميع أنواع المركبات البرية (جيب ، عربة مدرعة ٠٠ الخ) كمـا يمكن أن يسـتخدمه رجال المشاة وأكثر من هـذا فهو صـالح للاستخدام من طائرات الهليكوبتر التى تملكها اسرائيل ضمن ما يسمى « بالاحتياطى الطائر » وتستطيع كل طائرة أن تحمل مستودعين يضم كل منهما ٣ صواريخ من هذا الطراز ٠

ولا يحتاج الأمر الى ذكاء غير عادى لتحليل هـذا الاجراء من جانب الولايات المتحدة ٠

- لقد كانت اسرائيل تحتاج الى كميات هائلة من السلاح والعتاد تصل الى جبهة سيناء فى أسرع وقت ممكن ولذلك تقرر استخدام طائرات « الجلاكسى » ٠

- لقد كان معظم هذا السلاح من الدبابات الجديدة والصواريخ المضادة للدبابات الأمر الذى يؤكد أن اسرائيل خسرت كميـــات هائلة من الدبابات وتحتاج الى سلاح فعال مضاد للدبابات المصرية جاء ممثلا فى

أحـــدث صواريخ من هـــذا النوع يملكها جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

فى البر والبحر والجـو

وفى نفس الوقت الذى كانت تتحرك فيه طائرات الضربة الجـوية الأولى لسلاح الطيران المصرى الى مواقع العدو فى ســـيناء ، وتهدر فيه مدفعية الميدان المصرية فى مرحلة التمهيد للمعركة ، كانت بعض مدمراتنا قد وصلت أمام الساحل الشمالى لسيناء شرقي قناة السويس لتدك مواقع العدو وأهدافه القريبة من هذا الساحل .

ويجدر بنا فى هذا المجال التنويه بحقيقة هامة تقول أن اى سلاح فى العالم عبارة عن وسيلة لتوصيل شـــحنة معينة من المتفجرات الى قلب العدو ، ولا خلاف فى ذلك بين المدفع والطـــائرة فيما عدا ان الطائرة تستطيع أن تصل إلى مسافات بعيدة لتوصيل ما تحمله من متفجرات ، فى حين أن المدفع محـــدود من حيث المدى ، على أن المدافع الميدانية الحديثة تستطيع أن تصيب أهدافا على بعد أكثر من ٣٠ كيلو مترا وبناء على ذلك فان الطائرة فى النهاية عبارة عن مدفع مرن يصل الىالعدو عن طريق الجو، ونفس الشىء بالنسبة للقطع البحرية فهى بدورها عبارة عن مدافع مرنة تصل الى العدو عن طريق البحر وهكذا كانت المدافع باختلاف وسائلهـا تدك مختلف معاقل وأهداف العدو داخل سيناء .

وفى نفس الوقت الذى كانت تتجمع فيه بعض قطع أسطولنا البحرى على الساحل الشمالى لسيناء شرقى بور سعيد ، كانت قطـــع أخرى من الأســـطول تتجمع فى أقصى الجنوب وعلى بعد مئات الأميال عند « باب المندب » المدخل الوحيد الى البحر الأحمر وذلك لتسد الطريق على امدادات العدو البحرية عن طريق ميناء ايلات .

بحيرة عربية هائلة

لقد كان العدو يظن أن احتلاله لشرم الشيخ ومضايق تيران سيؤمن عملياته الملاحية عبر البحر الأحمر وكثيرا ما كان يساوم على هذه الأماكن بالذات على أساس أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة له ، وكانت خطوة ذكية من جانب القيادة المصرية أن تظهر للعدو والعالم أجمع أن الحصار البحرى على اسرائيل من اتجاه البحر الأحمر جنوبا لا يتوقف عند شرم الشيخ ومضايق تيران . بل يمكن فرضه وبكفاءة أكبر فيما هو أبعد من هذه المواقع بكثير هناك عند باب المندب وبعيدا تماما عن مدى أية طائرة قتال تملكها اسرائيل ، وتحول البحر الأحمر فى دقائق الى بحيرة عربية ضخمة محرمة على السفن الاسرائيلية .

الى هذا المدى وصل التخطيط لعملية العبور ، ولقد كان هذا التخطيط محصوبا بدقة متناهية خطوة بخطوة وكان نجاح العبور يتوقف على نجاح جميع الخطوات التى حسبناها واتمامها فى الأوقات المحددة بالضبط والا تعثرت العملية بأكملها .

ويجب أن نعلم جيدا أن التغلب على مشاكل العبور العديدة لم يقتصر فقط على استخدام الوسائل البدائية مثل تجريف الرمال واستخدام السلالم الحبالية وعربات الجر باليد لحمل ذخائر الأسلحة المضادة للدبابات . بل لجأنا بجانب هذه الوسائل البدائية الى استخدام أعقد الوسائل والأجهزة الاليكترونية ، ولأنها أول حرب من نوعها فى التاريخ ـ أقصد الحرب الاليكترونية ـ فقد كان لزاما أن نفرد لها فصلا خاصا فى هذا الكتاب .

من هنا وصل التعاون والتنسيق الى قمة الكفاءة على المستويات التالية :

- فيما بين وحدات وتشكيلات كل فرع من أفرع القوات المسلحة .
- فيما بين هذه الأفرع وبعضها .

– فيما بين القوات المسلحة المصرية على جبهة سيناء والقوات المسلحة السورية على جبهة الجولان .

ولقد أعلن الجنرال دافيد العازر أن اسرائيل : « ستحطم ظهور الجيوش العربية المهاجمة ... » وانتهت الحرب بتحطيم ظهر الجيش الاسرائيلي ، وأعلنت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل أن جنودها سيلقون بالجيش المصرى خلف القناة ... وانتهت الحرب بالقاء جيش اسرائيل فى الصحراء .

وكان سلاح الطيران الاسرائيلى – العماد الأكبر فى خطة الدفاع الاسرائيلية عن سيناء كما شرحنا من قبل – قد هب مسعورا لمهاجمة قواتنا بعد أربعين دقيقة بالضبط من نشوب القتال ، وكان كل شيء محسوبا بدقة بالغة – ومن هذه الحسابات ثم حماسة الرجال وكفاءتهم وتصميمهم – تولدت معجزة العبور فماذا حدث لسلاح الطيران الاسرائيلى ؟ وما هى الامكانيات الحقيقية لهذا السلاح ؟

سنرى معا .

"الحيال ها أفير"

أو

سلاح الطيران الإسرائيلي

« الخيال هاافير » أو سلاح الطيران الاسرائيل

ربما كان أصدق ما يعبر عن أهمية سلاح الطيران بالنسبة لاسرائيل والمرتبة التى يتمتع بهـــا هناك ، ما جاء على لســان أديب اسرائيلى عندما قال : « ان اسرائيل ليست دولة بالمعنى المعروف ولكنها عبارة عن ســلاح طيران يملك دولة » . واذا تركنا النواحى الأدبية جانبا ونظرنا الى أهميته العسكرية فقد جاء أصدق تعبير عن ذلك على لسان عيزر وايزمان القائد السابق والأب الروحى لسلاح الطيران الاسرائيلى عندما قال : « ان أحسن دفاع عن اسرائيل يكمن هناك فى سماء القاهرة » .

أما اذا تناولنا النمط الذى قام عليه ســــلاح الطيران الاسرائيلى فستجد انه منذ أيامه الأولى حتى أواخر أيامه اختير له أن يكون صــورة مكررة لأشهر سلاح طيران عرفه التاريخ الا وهو « ســلاح الطيران الملكى البريطانى » الذى استطاع بحفنة قليلة من الطيارين المقاتلين أن يصد جحافل أسراب « اللفتوف » (سلاح الطيران الألمانى) ، خـلال الهجوم الألمانى على الجزر البريطانية فيما سمى بعد ذلك بمعركة بريطانيا التى أعلن بعدها ونستون تشرشـــل كلمته الخالدة : « لم يحدث فى تاريخ الحروب بين البشر أن دانت فئة هائلة من الناس لحفنة قليلة من الرجال

بمثل مادان به الشعب الانجليزى لطيارى السلاح الجوى الملكى البريطانى » ٠

هم الانجليز ونحن النازيون

والتقط الاسرائيليون هذا الخيط الذكى فقد كان ينطبق تماما مع اعلامهم الموجه ــ والذى ساعدناهم فيه كثيرا قبل حرب ١٩٦٧ ــ فى تصويرنا بالقوة العنصرية الغاشمة ، وتصوير أنفسهم بقلعة الحضارة والمدنية ، فى منطقة الشرق الأوسط التى تستميت ، رغم ضآلتها ، فى الدفاع عن مقدسات العالم الغربى ، وبنفس الصورة التى دافع بها هذا العالم عن مقدساته خلال الحرب العالمية الثانية ٠

وقد ساعد اسرائيل فى ذلك أن ٢٥٠٠ شاب وفتاة من أبنائها كانوا قد خدموا فعلا فى سلاح الطيران الملكى البريطانى ، وقد اقتصرت خدماتهم فى البداية على مهن الخدمات المختلفة فى عالم الطيران ، ولكن كان ان قامت الوكالة اليهودية بضغط كبير لارسال عشرات من هؤلاء الشبان لدراسة فنون الطيران فى روديسيا وتوجهت المجموعة الأولى منهم الى هناك فى بداية عام ١٩٤٣ وكان من بين هؤلاء القادة الأوائل لسلاح الطيران الاسرائيلى فى حرب الاستقلال : مودى آلون وعيزر وايزمان ٠

فى نفس الوقت أرسلت الوكالة اليهودية بعثات أخرى من الشبان اليهود لدراسة الطيران ، وحاولت التأثير على الحلفاء للسماح بتشكيل أسراب خاصة من الطيارين اليهود فى جيوشهم ، ولما فشلت هذه المحاولة نظمت فى الولايات المتحدة الأمريكية دورات مختلفة لتعليم الشبان اليهود فنون الطيران ، وكان من بين هؤلاء أهارون ريمز الذى أصبح فيما بعد أول قائد لسلاح الطيران الاسرائيلى ٠

من البداية طيارين اجانب

ومنذ اللحظات الأولى لتكوين سلاح الطيران الاسرائيلى وظهر واضحا الاتجاه الى الاعتماد على مختلف الأجانب من ذوى الخبرات فى هذا المجال

المعقد وتجنيدهم للعمل بالسلاح الجوى الاسرائيلى جنبا الى جنب مع المتطوعين من مختلف الطوائف اليهودية خارج البلاد . وفى هذا المجال قام الشابان اليهوديان : « ابل شفايمر » و« هايمان شامير » بمجهودات هائلة جندا خلالها مئات من الطيارين والفنيين الجويين . وفى أكتوبر عام ١٩٤٨ وصل عدد الطيارين الاسرائيليين الى ١٥٠ طيارا كان من بينهم ٩٠ طيارا من الأجانب ، بينما وصل عدد الفنيين الجويين الى ١١٠ فنيا كان من بينهم ٩٥ رجلا جاءوا من خارج البلاد . وفى التقرير النهائى لحرب ١٩٤٨ تبين أن أكثر من ٧٠٠ متطوع أجنبى خدموا بين صفوف السلاح الجوى الاسرائيلى .

ومع تقدم الجيوش العربية لتحرير فلسطين سارعت اسرائيل الى دعم سلاحها الجوى وأرسلت تعليمات الى مندوبيها فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية لكى يبذلوا أقصى جهودهم لشراء طائرات قتالية . وتمكن « شفايمر » و « شامير » من شراء طائرات ثقيلة من فائض السلاح الجوى الأمريكى . وحتى عام ١٩٤٩ كان قد تم شراء ٦٩ طائرة أمريكية منها ٣ قاذفات من طراز « بى ــ ١٧ » (القلاع الطائرة) و ٩ طائرات من طراز « كوماندو » كذلك أمكن شراء عدد آخر من انجلترا وغيره من فائض الجيش الأمريكى فى ألمانيا وفائض الجيش البريطانى فى فلسطين نفسها . وبذلك بلغ مجموع ما اشترته اسرائيل ، خلال الجولة الأولى من النزاع العربى ــ الاسرائيلى ٢٥٠ طائرة من طرازات مختلفة نجحوا فى توصيل ٢٠٥ طائرة منها الى أراضى فلسطين .

يحاربون أساتذتهم

وقد شاء القدر فى يناير عام ١٩٤٩ أن يشتبك الطيارون الاسرائيليون مع طيارى السلاح الجوى الملكى البريطانى ــ مثلهم الأعلى والنموذج الذى اقتدوا به ــ وتمكنوا من اسقاط طائرتين من طراز « سبيتفاير » بينما أسقطت المدفعية المضادة للطائرات طائرة ثالثة ، ثم نشبت معركة جوية أخرى اسقطت خلالها طائرتين بريطانيتين من نفس

الطراز . وللقارىء أن يتصور مدى الغرور الذي يلحق بالمرء عندما يشعر أنه فاق مثله الأعلى ، وفى رأيى أن هذه الحادثة بالذات كانت البذرة التى نبت منها الغرور والصلف الذى لحق بالسلاح الجوى الاسرائيلى ووصل الى ذروته بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ٠

وبعد حرب ٤٨ شعرت اسرائيل بأهمية انشاء مدرسة لتعليم الطيران ونجح اهارون ريمز ـ ولعل هذا هو أبرز ما ساهم به أثناء توليه قيادة السلاح الجوى ـ فى انشاء مدرسة الطيران لتخريج الطيارين ومدرسة فنية لتخريج الفنيين الجويين فى مختلف فنون الطيران ، واستعان فى ذلك بالخبرات الأجنبية وعلى الأخص من الولايات المتحدة ٠

ولا يخفى على أحد ما انتهت اليه حرب عام ١٩٤٨ ولكن يهمنا فى هذا المجال مفهوم معين خرج به الفكر العسكرى الصهيونى من تجارب القتال فى هذه الحرب ، ويقوم هذا المفهوم ـ لا يهمنا هنا مناقشة مدى صحته ـ على أن الفضل كله فى صد جحافل الجيوش العربية . ومنعها من دخول فلسطين يرجع بالدرجة الأولى الى السلاح الجوى الاسرائيلى ، ومنذ هذا الحين بدأ الاهتمام بهذا السلاح الجديد اهتماما كبيرا وترسخت هذه الفكرة فى العقيدة العسكرية الاسرائيلية حتى أن مردخاى هود (قائد الطيران الاسرائيلى أثناء حرب الايام الستة) صرح يوما لاحد الصحفيين الأمريكيين بقوله : « ابعدوا السلاح الجوى الاسرائيلى عن سماء المعركة وفى ظرف ٢٤ ساعة على الأكثر ستجدون أن الجيوش العربية تتدفق صوب اسرائيل من كل جانب » ٠

وبعد الطائرات المروحية التى اقتصر عليها السلاح الجوى الاسرائيلى خلال حرب ١٩٤٨ فانه مع بداية الخمسينات بدأت اسرائيل فى الحصول على طائرات قتال نفاثة من انجلترا وفرنسا واستطاعت أن تمتلك عددا من طائرات متيور وأوراجان وميستير وفوتور ، وبذلك انتقل السلاح الجوى الاسرائيلى الى عصر الطائرات « الصب سونيك » (دون الصوتية) وبهذه الطائرات خاضت اسرائيل حرب ١٩٥٦ بالاشتراك مع انجلترا وفرنسا ٠

خطة قديمة ولكن ٠٠ !

ولم يكن للطيران الاسرائيلي دور يذكر خلال هذه الحرب ، ومع ذلك فقد استفاد منها استفادة كبيرة لم يتنبه أحد اليها في خضم الأحـداث المتلاحقة التى شهدتها المنطقة ، وبسبب الاعلام الاسرائيلي الذكى الذى يعرف طريقه جيدا الى عقلية العالم الغربى ، لقد حدث خلال تلك الحرب ان قامت الطائرات البريطانية والفرنسية بمهاجمة جميع قواعدنا الجوية وتدمير الطائرات وهى رابضة كالبطة الكسيحة التى لا تستطيع الحركة ، فوق ممرات هذه القواعد ، وكان أن نجح هذا الهجوم البريطاني ـ الفرنسي فى اخراج قواتنا الجوية من المعركة فيما عدا عدد قليل من الطائرات لم يكن ليستطيع عمل شئ فى سماء لا تخلو من طائرات ثلاث دول ٠

وعندما اقتربت تلك الطائرات البريطانية والفرنسية من أراضـينا فانها كانت تجيء من اتجاه البحر الأبيض المتوسط محلقة على ارتفاعات منخفضة لتفادى كشفها بواسطة أجهزة الرادار المصرية ، ولتحقيق المفاجاة الكاملة عندما تظهر فجأة فوق مطاراتنا ومواقعنا الحيوية ، وبالطبع كان قد اطلع الاسرائيليون على هذه الخطة ، ودون أن يعرضوا أنفسهم لأية مخاطر وقفوا من بعيد يراقبون تنفيذ هذه الخطة والنتائج التى حققتها ، ولم يكن ما فعلوه فى صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ يختلف فى شئ عن هذه الخطة : نفس الهدف ، نفس طريقة الاقتراب ، نفس أسلوب الهجوم، ولكن بمزيد من الجدية والتركيز لأنهم كانوا وحدهم هـذه المرة وكانت المخاطرة أكبر منهم بكثير ومع ذلك اقاموا الدنيا وأقعدوها عندما نجحت ضربتهم الجوية الأولى فى يونيو ١٩٦٧ وكما سنرى فيما بعد ورغم دور الطيران الاسرائيلي المحدود فى عملية قادش (حرب ١٩٥٦) فقد خسر فى هذه العملية ١٠ طائرات أسقطت جميعها بنيران المدفعية المضـــادة للطائرات المصرية فيما عدا طائرة واحدة أسقطتها طائرات « ميج ١٧ » فى معركة جوية ٠

ومن الغريب أن سلاح الطيران الاسرائيلي ارتكب فى عام ١٩٥٦ خطأ من نفس النوع الذى وقع فيه خلال حرب ١٩٦٧ عندما هاجم سـفينة

التجنسس الأمريكية « ليبرتى » ، وأحدث فيها خسائر ضخمة فى المعدات والأرواح ولقد حدث نفس الشئ فى عملية « قادش » ، عندما هاجمت أربع طائرات ميستير اسرائيلية المدمرة البريطانية « كراين » التى كانت تبحر بجوار ساحل شرم الشيخ فانقضت عليها الطائرات الاسرائيلية وأطلقت صواريخها فاصابت سطح المدمرة البريطانية اصابة بالغة .

ويهمنا فى هذا المجال ما ذكره موشى ديان ـ وكان وقتها رئيس أركان جيش الدفاع الاسرائيلى ـ فى الكتاب الذى ألفه بعد ذلك بعنوان : « يوميات سيناء » ، لقد قال ديان : يجب أن أقول لصالح أسلحتنا وعلى الأخص سلاح الطيران ـ أننا كنا متفوقين قبل التدخل الأنجلو ـ فرنسى، وذلك بالرغم من أنه قد فرضت علينا قيود كثيرة ولم يسمح لنا بمهاجمة المطارات المصرية ، وأننى على ثقة تامة بأنه لو كان علينا أن نقاتل المصريين بمفردنا لكان فى امكان سلاح الطيران الاسرائيلى أن يسكت الطيران المصرى خلال يومين فقط .

الأب الروحى فى فايد

لم يكن لديان أن يقول هذا قبل حرب ١٩٥٦ أو بعدها مباشرة ، ولكنه قالها بعد ذلك بعدة سنوات كان خلالها سلاح الطيران الاسرائيلى يكتسب قوة يوما بعد يوم ويتدرب يوميا تقريبا على الطيران المنخفض والاقتراب من المطارات المصرية التى صنع لبعضها نماذج كاملة فى أراضيه وكانت هذه المطارات هى نفسها التى استخدمها الطيران المصرى فى عام ١٩٥٦ بل حتى قبل هذا التاريخ أيام الاحتلال الانجليزى . وأكثر من هذا ان عيزر وايزمان الذى تولى قيادة الطيران الاسرائيلى فيما بعد كان قد عمل فى مطار فايد المصرى ضمن صفوف سلاح الطيران الملكى البريطانى .

لقد كانت حرب ١٩٥٦ عظيمة الفائدة بالنسبة للطيران الاسرائيلى من حيث انها كشفت له عن الطريقة المثلى لمهاجمة المطارات المصرية ، وخدمتهم

نحن فى أننا أبقينا على نفس هذه المطارات بنفس الأوضاع التى كانت سائدة فيها حتى تجدد القتال فى يونيو عام ١٩٦٧ ٠

وفى ٢٨ يوليو عام ١٩٥٨ تولى عيزر وايزمان قيادة السلاح الجوى الاسرائيلى خلفا لدان تولكوفسكى ، وكان ان عمل وايزمان على تطوير هذا السلاح تطويرا كبيرا حتى أنهم اعتبروه الأب الروحى للسلاح الجوى الاسرائيلى وكثرت الشعارات التشجيعية فى عهد وايزمان فخرج شعار « هناك طليعة على ارتفاع ٤٠ ألف قدم » والشعار الآخر الشهير : « ان أحسن دفاع عن اسرائيل يكمن هناك فى سماء القاهرة » وكان ذلك تأكيدا الى تطور نظرية الردع الاسرائيلية من مرحلة الردع البسيط الى مرحلة دفع العدوان الى حدود بعيدة ، داخل الدول العربية وبصفة خاصة داخل الحدود المصرية ٠

عصر السوبر سونيـــك

وكان من أهم التطورات التى لحقت بسلاح الطيران الاسرائيلى فى عهد وايزمان هى دخول الطيران الاسرائيلى الى عصر السرعات فوق الصوتية. فقد نجحت اسرائيل فى الحصول على طائرات الميراج من فرنسا ووصلت الميراج الأولى الى اسرائيل فى ابريل عام ١٩٦٢ وهى من طراز ميراج ــ ٣ وتصل سرعتها الى ضعف سرعة الصوت ٠

وكان ان طلبت اسرائيل احداث بعض التعديلات فى هذا الطراز من الطائرة من حيث التسليح والحمولة لتتناسب مع المهام التى ستكلف بها ، واستمر تدريب الطيارين الاسرائيليين على نفس الخطة ــ مهاجمة المطارات المصرية ــ ولكن بطائرات أكثر سرعة وكفاءة وخاصة فيما يتعلق بالطيران المنخفض الذى اختير أسلوبا لمهاجمة المطارات والقواعد الجوية المصرية ٠

وقد دخلت اسرائيل حرب يونيو المشئومة بقوة جوية قوامها كما يلى:

٧٢ مقاتلة اعتراضية من طراز « ميراج ــ ٣ » ٠

٢٤ مقاتلة من طراز « سوبر ميستير » ٠

- ٤٠ مقاتلة من طراز « ميستير ـ ٤ » ٠
- ٤٠ قاذفة مقاتلة من طراز « أوراجان » ٠
- ٢٤ قاذفة مقاتلة من طراز « فوتور » ٠
- ١٢ طائرة نقل من طراز « نورد أطلس » ٠
- ٥ هليكوبتر من طراز « سوبر فريلون » ٠
- ٤ هليكوبتر من طراز « الويت » ٠
- ٢٤ هليكوبتر من طراز « سيكورسكى » ٠
- ٦٠ طائرة تدريب من طراز « فوجا ـ ماجستير » (تم تسليحها واستخدامها فى العمليات) ٠

وفى شـــهر ابريل عام ١٩٦٦ ترك وايزمان منصبه للكولونيل « مردخاى هود » بعد أن عمل الكثير من أجل تطوير واعداد السلاح الجوى الاسرائيلى والارتقاء به الى مستوى متقدم من الكفاءة والتدريب ، ثم سلمه بعد ذلك لصديقه « هود » الذى اختاره القدر لينال الشهرة الكبيرة بعد الضربة الجوية الناجحة التى شنها الطيران الاسرائيلى فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ ٠

فى هذا الصباح المشئوم لم تكن هنـــاك أية عوائق أمام الطيران الاسرائيـــلى فقد كانت الخطة ناجحة وسبق تنفيذها بواسطة الطيران الانجلو ـ فرنسى وراقب الاسرائيليون تنفيـــذها بدقة ويقظة تامة ، ثم ظلوا يتدربون عليها ١١ عاما كاملا بجدية وسرية تامة ، فجـــاء النجاح مضمونا وكاملا وتحققت المفاجأة الأولى التى أدت فيما بعد الى سلسلة من الأخطاء والتخبط أوصلتنا فى النهاية الى هزيمة يونيو الشهيرة ٠

ومرة أخرى ازداد صلف السلاح الجوى الاسرائيلى ـ ولهم كل الحق فى ذلك ووصلت شهرته الى عنان السماء حتى أن الدوائر الأجنبية وصفته بأنه « من أكثر أسلحة الطيران تماسكا واحـــكاما فى العالم » اشارة الى الفاعلية الكبيرة والتعاون التام بين أطقمه المختلفة ٠

ثم دخلنا بعد ذلك مرحلة الصمود ثم الاستنزاف واعتمدت اسرائيل كلية على سلاحها الجوى لاجهاض اية محاولة من جانبنا للنيل من القوات

الاسرائيلية فكانت طائراتهم تخرج كل يوم للاغارة على جبهة القناة ووصل الأمر الى مطاردة رجال القوات الخاصة ـ الصاعقة ـ بالطائرات المقاتلة والقاذفة عندما بدأوا ينشطون فى عمليات الاغارة على القوات الاسرائيلية شرقى القناة ، وليس هناك أكثر من ذلك اسرافا أو اعتمادا على سلاح جوى ـ عند استخدام الطائرات النفاثة الحديثة لطاردة مجموعة من رجال القوات الخاصة ـ ولكن المسألة كانت تختلف مع اسرائيل « وهوس الطيران » الذى أصابها ٠

العصر الذهبى

وقد حدث تطور أخير بعد ذلك اثر القرار الفرنسى الشهير بحظر ارسال الأسلحة الى اسرائيل ، وقد شمل هذا القرار ٥٠ طائرة من طراز « ميراج ـ ٥ » كانت اسرائيل قد تعاقدت على شرائها ودفعت ثمنها . وقرر الرئيس الفرنسى ديجول ـ ومن بعده الرئيس بومبيدو ـ عدم ارسال هذه الطائرات الخمسين الى اسرائيل ، عندئذ اتجهت اسرائيل الى الولايات المتحدة واستطاعت أن تحصل على طائرات اسكاى هوك والفانتوم التى تعتبر اقوى واحدث واكفأ طائرات قتال فى العالم ، وبذلك دخل السلاح الجوى الاسرائيلى عصره الذهبى ويرجع الفضل فى ذلك مرة أخرى الى عيزر وايزمان الذى نجح فى عقد هذه الصفقة ٠

وقد عبر موشى ديان عن ذلك بصدق عندما أعلن فى يناير عام ١٩٧٢ ان سلاح الطيران الاسرائيلى أصبحت قيمته حينذاك خمسة أضعاف ما كان عليه فى حرب يونيو ٦٧ . وقد كان ديان محقا فى ذلك من جميع الاوجه فقد حصلت اسرائيل على الطائرة الأولى فى السلاح الجوى الأمريكى وفى العالم كله وأكثر من هذا أن الولايات المتحدة تعهدت بتعويضها فورا عن كل طائرة تخسرها من هذا النوع ، ولقد تناولنا فى أجزاء أخرى من هذا الكتاب تواريخ ووقائع اسقاط هذا النوع من الطائرات الذى ما ان تسلمته اسرائيل حتى بدأت تعربد فى أعماقنا . وخرج الى الوجود تعبير الذراع الطويلة لاسرائيل « لأن هذه الطائرات تغطى مدى هائلا يصل الى السودان

جنوبا وليبيا غربا ولم تكن هناك دولة عربية واحدة لا تستطيع أن تصل اليها طائرات اسرائيل الجديدة » .

قمة النشوة

ومن التواريخ الهامة فى سجل سلاح الطيران الاسرائيلى أو « الحيال ها أفير » كما يسمونه هناك ، يوم ١٩٧٠/٧/٣٠ عندما اشتبكت الطائرات الاسرائيلية مع عدد من المقاتلات الميج ـ ٢١ يقودها طيـــارون سوفيت واستطاعت ان تسقط أربع طائرات منها فى كمين جوى محكم ، وللقارىء أن يتصور ـ مرة أخرى ـ نوع المشاعر التى اجتاحت السلاح الجوى الاسرائيلى عندما شعر رجاله أنهم أسقطوا أربعة من طيارى احدى الدولتين العظميين فى العالم أجمع .. وصلت مشاعرهم الى منتهى الاعتداد والثقة بالنفس .. وهناك عند قمة الانتصار لم يكن أكثر الاسرائيليين سوداوية وشؤما ليحلم ـ أو قل يتنابه كابوس ـ بشكل أو حجم الكارثة التى كانت تنتظر هذا السلاح الجوى الأسطورى خـــلال عمليات القتـــال التى شهدتها حرب أكتوبر .

المباراة الدامية
أو
ملحمة الدفاع الجوى

وبعد ٤٠ دقيقة بالضبط من نشوب القتال فى يوم ٦ أكتوبر جاء أول رد فعل من جانب السلاح الجوى الاسرائيلى . لقد كان على عاتق الطائرات الاسرائيلية (كما شرحنا من قبل فى فصل خطوط الدفاع الاسرائيلية) أن تقوم بضرب قوات ومنشآت العبور المصرية أثناء المراحل الحرجة لهذه العملية ، وأثناء محاولة التوغل داخل سلسلة الموانع الصناعية التى أنشأتها اسرائيل مانعا تلو الآخر شرقى القناة .

واندفعت الطائرات الاسرائيلية مسعورة على طول الجبهة وبدأت المباراة الدامية بين السلاح الجوى الاسرائيلى وقوات الدفاع الجوى المصرى . لقد استطاعت قواتنا أن تسقط فورا أكثر من ١٥ طائرة فانتوم أو سكاى هوك خلاف ما أصيب أو أسقط بعيدا عن مواقعنا وقد بلغ مجموع الطائرات الاسرائيلية التى أسقطتها قوات دفاعنا الجوى فى أول يوم من أيام القتال ٦٠ طائرة منها ٣٤ طائرة سكاى هوك و ٢٦ فانتوم . وتعثر السلاح الجوى الاسرائيلى فى تنفيذ مهمته فى خطة الدفاع الاسرائيلية وظلت طائراته تتساقط الواحدة تلو الأخرى حتى وصل اجمالى الخسائر ضمن صفوف هذا « السلاح الجوى الأسطورى » الى : .

ـ ٣٣٤ طائرة قتال طبقا للتقديرات المصرية ٠
ـ ٢٨٥ طائرة قتال طبقا للتقديرات السوفيتية ٠
ـ ٢٠٠ طائرة قتال طبقا للتقديرات الأمريكية ٠

وتحت المظلة المنيعة لدفاعنا الجوى ، استطاع رجال القوات البرية ان يعبروا القناة واستطاع رجال المهندسين أن يبنوا الجسور والمعابر فى زمن قياسى ، وتمكنت قواتنا لأول مرة من أن تلتحم مع قوات العدو وتنهش لحمه ، انتقاما لسنوات طويلة مريرة منذ هزيمة ١٩٦٧ ٠

لأول مرة فى التاريخ

ولأول مرة فى تاريخ الحرب الحديثة كان أن ساهمت شبكة دفاعية بحتة ـ هى شبكة الدفاع الجوى المصرى ـ فى عملية هجومية من الطراز الأول لقد كانت هذه الشبكة توفر الحماية لقواتنا ـ أثناء مرحلة العبور ـ على بعد عشرات الكيلو مترات شرق القناة وعلى مسافات لم تكن قد وطئتها بعد أقدام من جنودنا ، والسبب فى ذلك أن الصواريخ المضادة للطائرات تغطى مساحة دائرية من موقع كتائب الصواريخ تصل الى ٣٠ كيلو مترا فى المتوسط فى جميع الاتجاهات ، وان كان ذلك يعتمد بالدرجة الأولى على ارتفاع الطائرات المغيرة ٠

فاذا أخذنا هذه المسافة كنموذج (لأن الحقيقة غير ذلك) لصواريخ سام المختلفة التى نملكها فمعنى هذا أن حزام الصواريخ المضادة للطائرات الموجودة غربى قناة السويس كان أثناء العبور ـ وطوال الوقت بعد انشاء هذا الحزام الشهير ـ يستطيع أن يصيب أى طائرة على عمق يصل حتى ٣٠ كيلو مترا شرقى القناة وكان هذا هو سبب الجدل الكبير الذى سمعناه من اسرائيل عند وقف اطلاق النيران فى أغسطس ١٩٧٠ ومحاولاتها التى لم تعرف اليأس لتجعلنا نسحب هذه الصواريخ الى الخلف بحجة أننا أدخلناها الى الجبهة بعد سريان قرار وقف اطلاق النيران فى اغسطس عام ١٩٧٠ ٠

من هذه الحقيقة العامة كانت هناك كثير من طائرات العدو تنفجر بعيدا شرقى القناة حتى قبل أن يراها رجال قواتنا البرية بأعينهم ، ولقد

كانت الظاهرة الواضحة في عمليات أكتوبر ١٩٧٣ ـ بعد ظاهرة التوقيتات والحسابات الدقيقة ـ ذلك التماسك الشديد بين جميع أنواع قواتنا المسلحة . وفي هذا الصدد كانت مظلة الدفاع الجوي بمثابة العمود الفقري الذي يربط أوصال مختلف عناصر قواتنا ، ويدرأ عنها بجدارة أخطار السلاح الجوي الاسرائيلي ·

ولقد شاهدت بنفسي سيارة جيب عند أحد المعابر على قناة السويس استوقفها رجال الشرطة العسكرية وكان الرجال الذين يستقلونها في عجلة واضحة وقال سائقهم ردا على سؤال رجال الشرطة العسكرية : « احنا من الدفاع الجوي » وهنا كاد مختلف الجنود الموجودين بالمنطقة أن يحملوا السيارة بمن فيها عرفانا منهم بالعمل العظيم الذي حققه هؤلاء الرجال . فقد كان وجودهم في مكان ما يعني ببساطة تامة تحييد الطيران الاسرائيلي وتهيئة ساحة القتال لنزال عادل بين قواتنا البرية وقواتهم البرية الأمر الذي كان يؤدي الى حسم المعركة لصالحنا ·

الى هــذا الحــد

ولقــد أثبتت تجارب القتال العديدة بيننا وبين اسرائيل أن رجال القوات البرية الاسرائيلية بمختلف فروعها قد تعودوا دواما على خوض معاركهم ، على مختلف المستويات وطائراتهم فوقهم تؤازرهم وتحميهم ، وكان ذلك يبث الطمانينة في نفوسهم ، أما عندما اختفت هذه الطائرات من فوق رءوسهم ، وامتدت فوق رءوس رجالنا هذه الشبكة الفعالة غير المرئية ، فقد اضطرب رجال القوات البرية الاسرائيلية كثيرا وأدركوا أن خللا ما قد حدث ولم تعد الأمور كسيرتها الأولى ·

ولقد روى لى أحد مقاتلينا على خط الحــد الأمامي عن الجبهة أن صواريخنا أصابت طائرتين فانتوم للعدو فاتجهتا شرقا لتسقطا بين المواقع الاسرائيلية وكان رجلنا يتابع هاتين الطائرتين بنظارته الميدانية ، فكان يراهما بوضوح حتى ارتطمتا بالأرض وتصاعد من مكان ارتطامهما عمود هائل من الدخان والأتربة وعندئذ وقع نظـره بالصدفة على أحـد المواقع

البرية الاسرائيلية ، فاذا برجال هذا الموقع يلقون بأسلحتهم «ويتمرغون» فى الرمال بكاء ونحيبا . الى هذا الحد وصل تأثير الطيران الاسرائيلى على قواته البرية . ومن هذا المنطلق كان تأثير الدور الذى لعبه دفاعنا الجوى عظيما فى معارك السادس من أكتوبر » .

حيـلة بارعة

وتذكرنا هذه القصة بحيلة بارعة لجأ اليها الطيران الاسرائيلى منذ أن احتـل سيناء وطبق استخدامها منذ هذا التاريخ حتى الآن بهدف اخفاء خسـائره من الطيران ، وحرماننا من الحصول على حطامها حتى تتشكك فى بلاغات وحداتنا التى قامت بعملية الاشتباك ويتشكك العالم كله فى صحة بلاغاتنا العسكرية .

كلنا يعرف أن وسائل اصابة طائرات العدو تنحصر فى الآتى :

- صاروخ جو جو تطلقه احدى المقاتلات الاعتراضية .
- صاروخ أرض ـ جو تطلقه احدى كتائب الصواريخ .
- أعيرة نارية من مدافع المقاتلات الاعتراضية .
- أعيرة نارية من المدافع المضادة للطـائرات المتمركزة فوق سطح الأرض .

الفـــانتوم طائرة متينة

وفى هــذه الحالات تكون الاصابة أما مباشرة فى منطقـة حيوية مثل خزانات الوقود فتنفجر الطائرة فى الجو ويتناثر حطامها على مساحة شاسعة من الأرض ، أو تكون الاصابة فى منطقة غير حيوية وفى هذه الحالة يمكن للطائرة أن تستمر فى الطيران فترة من الوقت تعتمد على كفاءة الطيـــار وقدرته على التصرف ، وفى بعض الأحيان يحدث أن يتمكن الطيار من العودة الى قاعدته بطائرته المصابة بعد أن يتخلص من حمولته من القنابل وخاصة

اذا كانت الطائرة من طراز فانتوم لأنها طائرة متينة جدا متعددة الأجهزة بعكس الطائرة « سكاى هوك » التى يقفز منها طياروها بمجرد اصابتها ٠

والذى يهمنا قوله فى هذا المجال أن الطائرات الاسرائيلية كانت ، اثناء معارك الاستنزاف وخلال مرحلة العبور ، تهاجم شريطا ضيقا من الأرض حول القناة ، وعندما كانت تصاب احدى هذه الطائرات ـ وحتى اذا كانت محركاتها قد توقفت تماما عن العمل ـ كان قائدها يوجهها ناحية الشرق وينزلق بها شراعيا ليهبط بعيدا عن مواقعنا هاربا من الأسر وحارما قواتنا من الدليل المادى على اسقاط طائرة جديدة ٠

أما اذا كانت محركات الطائرة سليمة فيستطيع الطيار الاسرائيلى أن يقطع مسافة أكبر نحو الشرق وهناك يقرر ما اذا كان من الممكن أن يستمر متجها الى اقرب مطار أو يقفز « بالبارشوت » فى مكان امين بعيـــدا عن قواتنا وبالتنسيق مع أجهزة البحث والانقاذ الاسرائيلية ومحددا مكانه بالضبط ، حتى يسهل التقاطه بواسطة احدى طائرات الهليوكبتر ، واعادته الى قاعدته ثم تستطيع اسرائيل أن تنكر سقوط أى من طائراتها ٠

وهنـــاك واقعتان بارزتان كانتا أول من نبهنا الى هـــذه الحيلة الاسرائيلية أولهما الاشتباك الجوى الذى اسقطنا فيه أول طائرة فانتوم فى ٩ ديسمبر عام ١٩٦٩ وثانيهما يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٠ عندما أصابت صواريخ دفاعنا الجوى كل محركى طائرة فانتوم كان يقودها أحد قادة الأسراب الاسرائيليين وواحد من أحسن طياريهـــا ويدعى « شموئيل حيتش » ، وقد انفجرت به الطائرة وهو يحاول جاهدا الفرار بها شرقا تطبيقا لنفس هذه الحيلة ، وقد فجعت اسرائيل لمصرعه أشد فاجعة (كما سيرد فيما بعد) ٠

اختلاف تقدير الخسائر

من هنا اختلف تقدير حجم الخسائر التى منى بها ســلاح الطيران الاسرائيلى وان كانت تقديراتنا أكبر من التقديرات السوفيتية والأمريكية

والدوائر الأخرى ، فذلك لأن تلك الجهات تبني تقديراتها على أساس الأدلة المادية الدامغة ، أما عن حقيقة ما يجرى فتجن واسرائيل فقط تعلم حقيقة الموقف ، بل ان اسرائيل وحدها هي التي تعرف حقيقة ما خسرته لأن بياناتنا في حرب أكتوبر تأثرت الى حد بعيد بكارثة البيانات العسكرية في حرب ١٩٦٧ ٠

كنا قد بالغنا كثيرا في بيانات حرب ١٩٦٧ فازدادت خيطتنا فيما تلا ذلك من اشتباكات ، وحدث أننا في الفترة من ٣٠ يونيو الى ٨ أغسطس عام ١٩٧٠ أذعنا رسميا أن الخسائر التي كبدناها للعدو هي ١٦ طائرة ، وفيما بعد أبلغ دونالد بيرجس ، المشرف على رعاية المصالح الأمريكية في القاهرة ، أحد كبار المسئولين المصريين أننا قللنا جدا من الخسائر التي ألحقناها بسلاح الطيران الاسرائيلي ولم يفصح عن العدد الحقيقي للطائرات التي أصبناها وبعدها نشرت مجلة « أيفيش ويك » الأمريكية في عددها الصادر في ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ أن خسائر اسرائيل في هذه الفترة كانت ٥١ طائرة تدمر منها ١٧ طائرة وأصيب الباقي (٣٤ طائرة) باصابات مختلفة وهنا نفهم مرة أخرى سبب الضجة الكبيرة التي أثارتها اسرائيل حول شبكة الصواريخ المصرية عند وقف اطلاق النيران في أغسطس عام ١٩٧٠ ٠

ولقد استمر هذا الاتجاه متبعا خلال عمليات أكتوبر . كان اللواء محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى المصرى ينقص من البلاغات التي يتلقاها من وحداته المختلفة عن اسقاط الطائرات الاسرائيلية فكان لا يحتسب غير الطائرة التي يؤكد أكثر من مصدر واحد اسقاطها . وأكثر من هذا فانه بعد احتساب الخسائر الاسرائيلية بهذا الأسلوب الحريص وابلاغ النتيجة النهائية للفريق أول أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرى والقائد العام للقوات المسلحة ، كان بدوره ينقص عددا آخر من الطائرات التي أسقطناها بناء على ما يتجمع لديه من صورة شاملة عن الموقف في الجبهة وزيادة في الحيطة وعدم الانزلاق الى هوة المبالغات ٠

طابور الصباح الاسرائيلي

وفى صباح ٧ أكتوبر ـ ثانى أيام القتال ـ بدأ العدو فى محاولة تنفيذ الخطة القديمة التى اتبعها فى يونيو ١٩٦٧ ، فأرسل ٦٨ طائرة فانتوم وسكاى هوك حلقت على ارتفاع منخفض جدا فوق سطح مياه البحر الأبيض وعندما وصلت أمام ساحل الدلتا غيرت اتجاهها جنوبا لتهاجم قواعدنا الجوية فى شمال الدلتا فى محاولة لاخراج قواتنا الجوية من المعركة ٠

وقبل أن تصل هذه الطائرات الاسرائيلية الى قواعدنا الجوية كانت مقاتلاتنا الاعتراضية مشتبكة معها على طرق الاقتراب لهذه المطارات ثم سلمتها بعد ذلك للصواريخ أرض ـ جو واستطاعت عناصر الدفاع الجوى المختلفة أن تدمر ١٨ طائرة فى هذا الهجوم ، وأجبرت باقى الطائرات الاسرائيلية على العودة دون ان تحقق المهام التى جاءت من أجلها ، وهذا هو الهدف الأول الذى يصبو اليه أى نظام دفاع جوى فى العالم ٠

ومنذ هذا اليوم ظل سلاح الطيران الاسرائيلى يحاول يوميا بحماقة بالغة ـ فقد ثبت له أنه لن يستطيع تكرار محاولة ٦٧ ـ أن يدمر قواعدنا الجوية وكان يبدأ ذلك بهجمة جوية فى حوالى الساعة التاسعة صباحا ـ نفس الميعاد الذى هاجمنا فيه يوم ٥ يونيو ٦٧ ـ وكان رجال الدفاع الجوى دائما فى انتظاره بل كانوا يسمونه تهكما « بطابور الصباح الاسرائيلى » الذى لم يستطع أن يحقق أهدافه طوال أيام القتال ، وفى يوم ١٠ أكتوبر اعترف أهارون ياريف بأن « شبكة الدفاع الجوى المصرى قد اسقطت عددا كبيرا من الطائرات الاسرائيلية وان اسرائيل ستحاول معالجة هذا الموقف » ٠

وفى يوم ١٨ أكتوبر كانت جراح السلاح الجوى الاسرائيلى ما زالت تدمى بغزارة وصرح أحد الطيارين الاسرائيليين الذين أسرتهم قواتنا ، قائلا : « ان روحنا المعنوية قد اهتزت تماما ولكنها لم تتحطم نهائيا » ٠

ولقد كان سلاح الطيران الاسرائيلى يتبع أسلوب الهجوم على ارتفاع

منخفض جدا ـ نفس الأسلوب الذى اتبعه فى يونيو ٦٧ ـ علما منه بأنه ليس هناك جهاز رادار يستطيع اكتشاف الطائرات على هذا الارتفاع القريب جدا من سطح الأرض ، بما عليها من أشجار وجبال ومبان ومعالم أرضية مختلفة تحجب الكشف الرادارى على هذا الارتفاع ، ونتيجة لتجربة الدفاع الجوى المصرى مع العدو الاسرائيلى خلال الاشتباكات المستمرة منـذ عام ١٩٦٧ حتى الآن فقد قامت دراسات عديدة تهدف الى ايجاد وسيلة فعالة للانذار مهما لجأ العدو الى أساليب فى الاقتراب الى أراضينا .

الحـزام الأسـود

والمعروف أنه بدون وسيلة انذار فعالة تحذر عناصر الدفاع الجوى الايجابية (المقاتلات الاعتراضية والصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات) والدولة باكملها على المستوى المدنى والعسكرى ، فانه لن يمكن التعامل مع طائرات العدو المغيرة كما ينبغى ، وقد بذلت وحدات الرادار والانذار المصرية مجهودات رائعة طـــوال عمليات أكتوبر ١٩٧٣ ولم يحدث ان اقتحمت أية طائرة معادية مجالنا الجوى الا وقامت وحدات الرادار والانذار باكتشافها وتتبعها والتبليغ المستمر عن خط سيرها .

ونتيجة لهذه الدراسات العديدة توصلت قوات الدفاع الجوى الى انشاء نظام للمراقبة بالنظر . وكان أن تم احاطة كل شبر من الأراضى المصرية ـ وعلى أبعد ما يمكن من مناطق الحدود ـ بنقط مراقبة بالنظر يتناوب فيها عدد من الرجال مراقبة السماء بالعين المجردة ونظارات الميدان بحثا عن أية طائرات للعدو تقترب من أى اتجاه وبأى عدد وعلى أى ارتفاع .

وانتشرت هذه النقط فى انساق وسياجات متعددة لتغطى كل رقعة من الأراضى المصرية وفى مناطق أغلبها موحش ... ربما لم تطأها قدم بشر من قبل ، وظل هؤلاء الرجال المجهولون رابضـين فى مواقعهم ليل نهار ، ولسنوات طويلة بعليئة ينظرون الى السـمـاء باستمرار بحثا عن طائرات العدو التى تحاول التوغل داخل أراضينا .

حياة او موت

والحقيقة أن هذا الأسلوب لم يكن جديدا فى الفكر العسكرى ، بل هو ـ وكما ذكرنا من قبل ـ تكرار لتجارب القتال فى الماضى ، قبل اختراع الرادار وخلال السنوات الأولى من اكتشاف هذا الجهاز الفعال الذى كان له تأثير السحر على المعارك وأنظمة التسليح الحديثة ٠

أما بالنسبة لمصر خلال عمليات أكتوبر ١٩٧٣ فكان الجديد هو العودة الى استخدام هذا النظام القديم جنبا الى جنب مع أجهزة الرادار والأجهزة الاليكترونية الأخرى ، وقد كان هذا الأسلوب فعالا الى درجة خيالية حتى أن موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى ، وعد طياريه أثناء معارك الاستنزاف بأنه سيدمر لهم هذا الحزام الأسود (يقصد حزام نقط المراقبة بالنظر) الذى قضى على أى أمل للطيارين الاسرائيليين فى أن يتوغلوا داخل أراضينا ويفلتوا من العقاب ٠

صحيح ان مدى النظر بالعين المجردة لا يقارن بالنسبة لمدى الكشف بواسطة أجهزة الرادار ، ولكن عيون البشر لا يمكن خداعها بأجهزة الاعاقة الاليكترونية كما أنها مرنة لا يحد من قدرتها ارتفاع أو انخفاض حتى لو كانت الطائرات المغيرة « تزحف زحفا » على سطح الأرض ، وبذلك تمنا بتأمين أنفسنا ضد أى « بدع اليكترونية » أو تكتيكات جوية حديثة فالمسألة كانت بالنسبة لنا هذه المرة حياة أو موت ٠

وقد نجح نظام المراقبة بالنظر فى مصر نجاحا ساحقا ووصلت بلاغات هذه الشبكة الى آلاف الطائرات المعادية خلال الفترة التى استغرقتها عمليات اكتوبر ١٩٧٣ ، والى جانب الواجب الأساسى لهذه الشبكة ألا وهو التبليغ عن طائرات العدو ، فقد حققت نتائج أخرى لا تقل أهمية ، برزت من خلال التجربة العملية أثناء القتال ونذكر منها :

- التبليغ عن عدد وأنواع الطائرات المعادية التى يتم تدميرها وتحديد أماكن سقوطها ٠
- التبليغ عن الطيارين الاسرائيليين الذين يتمكنون من القفز بالباراشوت

عقب اصابة طائراتهم ، وذلك بجانب تحديد أماكن هبوطهم والاشتراك في أسرهم ·

.. والغريب أن هؤلاء الرجال كانوا منتشرين في بقاع نائية في الجبال والصحارى والوديان ، ولم يكن هناك رقيب عليهم في هذه الأماكن المهجورة اللهم الا روح معنوية لا تعرف اليأس ، وتصميم على النصر ، ولوحة صغيرة علقوها في كل موقع من مواقعهم وقد كتبوا عليها : « عينان لا تمسهما النار يوم القيامة ·· عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله ·· » ·

ومن ضمن الوسائل الأخرى التى استطعنا بها أن نحبط كل محاولات العدو لمهاجمة قواعدنا الجوية ومواقع الدفاع الجوى ما اتبعناه خلال حرب أكتوبر من وسائل للدفاع السلبي لعب فيها المهندسون العسكريون دورا بارزا ، وعلى سبيل المثال كانت طائراتنا لا تقف مكشوفة أبدا فوق سطح الأرض بل كانت تربض دائما داخل دشم حصينة تحت سطح الأرض لاتصل اليها القنابل ولا تؤثر فيها وقد اقتبس حلف الأطلنطى هذا الأسلوب منا وطبق استخدامه في القواعد الجوية التابعة له ·

سلاح البالونات

وعلاوة على ذلك قمنا قبل العمليات مباشرة بنشر أعداد كبيرة من البالونات الضخمة فوق قواعدنا الجوية وكل بالونة من تلك مشدودة الى الأرض بحبل متين من الصلب لا يستطيع اى طيار أن يراه ، وكانت الرياح تحرك البالونات فى اتجاهها بينما حبال الصلب غير المرئية في اتجاه آخر ، وبالطبع فان الطيارين الاسرائيليين كانوا يرون البالونات ولكنهم لا يعرفون أين مكان الحبال القاتلة ، وكانوا يحجمون عن الطيران المنخفض لمهاجمة مطاراتنا خوفا من الارتطام بهذه الحبال القادرة على تمزيق أية طائرة واسقاطها على الفور وفى هذه الفترة الحرجة كانت تنهال عليهم نيران مختلف عناصر الدفاع الجوى وقد حدث أن تجرأ أحد الطيارين

الاسرائيليين أثناء مهاجمة احدى قواعدنا الجوية يوم ١١ أكتوبر وانقض بطائرته واذا به يرتطم في الحبال القاتلة وتنشطر طائرته في الجو ٠

كذلك ظهرت عبقرية المعمارى المصرى في بناء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، وفي هذه المرة اقتبس حلف وارسو بناء هذه القواعد وطبق استخدامها بالنسبة لقواته وهناك عشرات من الاساليب المبتكرة التى تفجر عنها الذهن المصرى استعدادا لمعركة التحرير ، فلم يكن هناك طريق الا وسلكناه ، بدائيا كان أو من قمم العلم والتكنولوجيا ٠

ولأن طيران العدو كان أقوى أسلحته ، فقد انعكست مجهوداتنا بصورة واضحة في مجال الدفاع الجوى وهو الجهاز المكلف بشل فاعلية الطيران الاسرائيلي وحمايتنا جميعا ـ مدنيين وعسكريين ـ من أخطاره ـ وكان العدو قد لاحظ ذلك في بداية الأمر ولكنه فسر هذا التقدم البارز خلال أسبوع تساقط الفانتوم الشهير بالوجود العسكرى السوفيتي في مصر ، وكان هذا التفسير يتفق الى حد بعيد مع أهواء العدو وغروره ، وكانت الحقيقة على عكس ذلك تماما ٠٠ وهنا يحسن بنا تناول هذه القصة من اولها ٠

من مكاسب النكسة

بعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ أيقن المسئولون على جميع المستويات أن نظام الدفاع الجوى هو العامل الحاسم في صد هجوم العدو الجوى وحماية أهداف الدولة الحيوية بما فيها وسائل الردع التي تملكها ، والتى ستلقى عليها مسئولية القيام بالهجوم المضاد ٠

ولذلك فان عملية اعادة بناء القوات المسلحة ركزت بصفة خاصة على الدفاع الجوى ويرجع الفضل في ذلك بالدرجة الأولى الى الفريق عبد المنعم رياض الذى كان يتولى حينذاك منصب رئيس أركان القوات المسلحة ، وكان أساسا من رجال الدفاع الجوى وواحدا من أكثر القادة العسكريين ثقافة وعلما في هذا المجال وغيره من فروع العلوم العسكرية ٠

ومن الصدف الغريبة أن الفريق رياض كان قد رشح لتولى منصب قائد شعبة الدفاع الجوى ـ وكان الدفاع الجوى حينئذ فى صـــورة شعبة تابعة للقوات الجوية ـ قبل النكسة بسنوات قليلة ، ورفض الرجل الذى يقدس العلم والمعرفة أن يتولى هذا المنصب الخطير ما لم يؤهل له تأهيلا كاملا ، وبالفعل أرسل فى دورة تدريبية بالاتحاد السوفييتى درس خلالها عمليات الدفاع الجوى المعقدة ، وعاد الى مصر ووافق أن يتولى قيادة الدفاع الجوى بشرط أن يتم فصل الجهاز المعقد عن القوات الجوية ويصبح قوات ذات كيان مستقل وعلى قدم المساواة مع القوات البرية والبحرية والجوية ويرتدى أفراده زيا خاصا يميزهم عن باقي أفراد القوات المسلحة .

على أن الأحداث أدت حينذاك الى نقل الفريق رياض الى القيادة العربية الموحدة وســـافر الرجل الى الأردن حيث اشترك من هناك فى عمليـــات ١٩٦٧ ، وكان أن شهد له العدو قبل الصديق بكفاءته القيادية وأبلى هناك بلاء حسنا أشار اليه موشى ديان نفسه فى أكثر من مناسبة .

وعندما تولى الفريق رياض منصب رئيس الأركان بعد النكسة بدا فى تحقيق حلمه القديم وكان أن تم فصل الدفاع الجوى عن القوات الجوية وأصبح كيانا قائما بذاته « قوات » رابعة تلى القوات البرية والبحرية والجوية (حسب الأقدمية العامة المرتبطة بتاريخ نشأة هذه القوات فى العالم) . وسمعنا فى مصر لأول مرة فى يونيو عام ١٩٦٨ عن قوات الدفاع الجوى تماما كما اعتدنا السماع عن القوات البرية أو البحرية أو الجوية فيما قبل هذا التاريخ .

المعركة الشرسة

ووقع اختيار المسئولين على اللواء حسن كامل ليكون أول قائد لقوات الدفاع المصرى وكان معه اللواء محمد على فهمى رئيسا لأركان هذه القوات. وتعاون الرجلان فى بناء القوات الجديدة واعدادها للمهام الصعبة التى تنتظرها فى المستقبل ، والتى بدأت على أثر حادث صغير خلال معارك الاستنزاف وأثناء التراشق بمدفعية الميدان على طول الجبهة .

كان الفريق رياض فى زيارة للجبهة حينئذ ولاحظ وجود طائرة مروحية صغيرة للسلاح الجوى الاسرائيلى (اقتبس العدو استخدامها من تجربة القتال فى فيتنام) تحلق على ارتفاع متوسط فوق الضفة الشرقية لقناة السويس بعيدا عن مرمى المدفعية المضادة للطائرات ، وكانت تلك الطائرة وهى من طراز « بيبر » تكاد لا تساوى ثمن الصاروخ المضاد للطائرة وهو السلاح الأرضى الوحيد القادر على اسقاطها على هذه المسافة التى تحلق عليها شرقى قناة السويس ، على أن الفريق رياض تصور الموقف بطريقة أخرى وسلم بأنها لا تساوى ثمن الصاروخ من الناحية المادية ولكنها تؤدى الى فوائد كبيرة بقيامها بتصحيح الضرب للمدفعية الاسرائيلية لتصيب أهدافنا على الضفة الغربية ومن ثم أصدر أوامره باسقاط تلك الطائرة وعلى الفور انطلق صاروخ من طراز « سام ـ ٢ » فهوت الطائرة حطاما بمن فيها ٠

وكان أن بدأت المعركة الشرسة بين سلاح الطيران الاسرائيلى من جانب وقوات الدفاع الجوى المصرى من الجانب الآخر ، وهى المعركة التى استمرت حتى آخر دقيقة من يوم ١٣ اغسطس ١٩٧٠ عندما بدأ سريان مفعول قرار وقف اطلاق النيران ٠

مبدأ « بوفر »

لقد أيقنت اسرائيل حينئذ أن سلاحها الجوى الذى ترتكز عليه بقوة فى أية معركة مع العرب لن تكون له اية فاعلية طالما كانت هناك لدى مصر شبكة للدفاع الجوى تحول بين الطائرات الاسرائيلية وبين أهدافنا الحيوية، وأن وجود تلك الشبكة سيحرم الطائرات الاسرائيلية من حرية العمل ، ولذلك بدأت الطائرات الاسرائيلية معركتها للحصول على ما أسماه الجنرال الفرنسى الشهير أندريه بوفر « بالحرية الجوية » ٠

ويتلخص هذا المبدأ العسكرى الجديد ، الذى لم يعمل به من قبل فى أية معركة قبل معاركنا مع العدو الاسرائيلى ، فى أن تقوم طائرات الخصم بتمزيق وسائل الدفاع الجوى للخصم الآخر حتى تصبح بعد ذلك قادرة

على التجول بحرية تامة فوق أراضي هذا الخصم دون أن تلاقي أية مقاومة واستمر القتال بضراوة بين وحدات الدفاع الجوى المصرى وسلاح الطيران الاسرائيلي وكان أن تولى اللواء محمد علي فهمي قيادة قوات الدفاع الجوى في ١٩٦٩/٥/٢٣ وفي ذروة المعارك الشرسة مع الطيران الاسرائيلي الذي كان يتكون من حوالي ٥٠٠ طائرة قتال مجهزة بأحدث الاسلحة الاليكترونية في الوقت الذي لم تكن فيه الأسلحة بين أيدي مقاتلي الدفاع الجوى تسمح بمواجهة هذه القوة الجوية الاسرائيلية وردعها ٠

وبمرور الوقت ازدادت شراسة السلاح الجوى الاسرائيلي حتى انه خلال الشهور الاربعة الأولى في عام ١٩٧٠ ، بلغ متوسط طلعات العدو الجوية على مواقعنا بجبهة السويس حوالي ١٨٠ طلعة أسبوعيا — وفي الأسبوع الثاني من مايو زاد عدد طلعات العدو الى ٥٢٦ طلعة أسبوعيا . وفي الأسبوع الثالث من نفس الشهر قفز عدد طلعات العدو الجوية الى ١٨٢ طلعة يوميا أي بمعدل ١٢٧٤ طلعة في الأسبوع تقريبا ، وكان السلاح الجوى الاسرائيلي يعتمد أساسا في هذه الطلعات على الطائرات فانتوم فـ٤ وطائرات سكاي هوك ، وكانت تلك الطائرات تحمل كميات هائلة من القنابل التي تزن ٢٠٠٠ رطل من المواد شديدة الانفجار وهي من أقوى القنابل التي أنتجتها أمريكا حتى ذلك الوقت ٠

بنــاء حائط الصواريخ

وأصبح من الضرورى توفير شبكة فعالة للدفاع الجوى ودفعها لتغطية الجبهة ووقاية القوات البرية هناك وذلك في الوقت الذي كان فيه السلاح الجوى الاسرائيلي مصمم على تحقيق مبدأ الحرية الجوية وعدم اعطاء الفرصة لاقامة أية تحصينات للصواريخ الجديدة ، وقبل رجال الدفاع الجوى هذا التحدى وازداد الصراع شراسة ودموية ٠

كان من الضرورى بنـاء قواعد خرسانية خاصة لاطلاق الصواريخ المضـادة للطائرات وبدأ التنفيذ في جميع أنحاء الجمهورية ، وبالنسـبة لحائط الصواريخ في الجبهة كانت هناك وجهتا نظر :

١ ــ القفز مباشرة الى المواقع الأمامية بالجبهة ٠

٢ ــ الزحف البطيء ، بأن يتم انشاء الحائط نطاقا نطاقا بحيث تتمركز الصواريخ فى النطاق المتقدم تحت حماية النطاق الخلفى له ٠

وكان أن وقع اختيار المسئولين على أسلوب الزحف البطيء وهنا نقول انه لم يحدث فى تاريخ المعارك الحربية أن ساهمت فئة من المدنيين بمثل التضحيات والأعمال الباهرة التى ساهم بها عمال البناء المصريون ــ أبناء الصعيد ــ فى بناء أشهر حائط للصواريخ فى التاريخ ٠

أقمار التجسس والعمال المصريون

فى البداية سارت الأمور كما ينبغى وتم انشاء مواقع النطاق الأول واحتلاله دون أى رد فعل اسرائيلى ، ثم كان أن لاحظت وسائل استطلاع العدو هذا النشاط الغريب من جانبنا وهنا يقول لنا زئيف شيف ، المحرر العسكرى لجريدة ها آرتس الاسرائيلية المستقلة والمعروف بصلاته الوطيدة بموشى ديان وكبار المسئولين فى وزارة الدفاع الاسرائيلية ، ان القيادة الاسرائيلية لم تفهم فى بادىء الأمر ماذا يفعله عمال البناء المصريون فى منطقة الجبهة ، ولكنهم رغم ذلك قرروا مهاجمة تلك المنشآت الغريبة التى يبنيها العمال المصريون ، وخرجت طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى تقصف عن عمد هؤلاء العمال المدنيين ودون أن يتأكدوا مما يقوم به هؤلاء العمال الأبرياء ٠

ويستطرد الكاتب الاسرائيلى قائلا ان الغموض ظل يكتنف هذه العملية الغريبة على الضفة الغربية من قناة السويس الى أن حصلت القيادة الاسرائيلية على مجموعة من الصور التقطتها أقمار التجسس الأمريكية كشفت عن وجود منشآت خرسانية بمنطقة السد العالى والاسكندرية مماثلة تماما للمنشآت التى يقوم العمال المصريون ببنائها غرب قناة السويس ٠

وهنا أدرك المسئولون الاسرائيليون أن هؤلاء العمال انما يبنون

قواعد خاصة لصواريخ « سام » وصدرت الأوامر لسلاح الطيران الاسرائيلى بتركيز كل عملياته القتالية ضد هذه المنشآت الجديدة ·

وأثنـاء هذا القتال الشرس كان رجال الدفاع الجوى يشعرون بمسئولية مضاعفة ، فقد كان عليهم أن ينتهوا بسرعة من هذه التجهيزات لمجابهة الفانتوم ، وفى الوقت نفسه كان عليهم أن يوفروا الحماية اللازمة للعمال الأبرياء الذين يقومون ببناء تلك التجهيزات الحيوية ، وكان من المستحيل على هؤلاء المدنيين أن يواصلوا العمل تحت هذه الظروف الصعبة التى زاد منها أن طائرات اسرائيل واصلت هجماتها نهارا وليلا مستعينة بمشاعل الاضاءة ووسائل التشويش الأليكترونية ، وانضم « أبناء مصر من العمال » الى أسرة الدفاع الجوى ، وقبلوا تحدى السلاح الجوى الاسرائيلى ، وظلوا صامدين وصامتين حتى أكملوا بناء المعجزة ·

عشرات المواقع فى ليلتين

وبعد انشاء النطاق الأول من حائط الصواريخ فانه استغلالا للنجاح كان قد تقرر انشـاء ثلاثة نطاقات جديدة تمتد الى منتصف المسافة بين القاهرة والجبهة ، ووضعت قيادة الدفاع الجوى خطة جريئة وطموحة يجرى تنفيذها على مدى ليلتين فقط ويتم خلالها انشاء التحصينات اللازمة لعشرات من مواقع الصواريخ من طراز « سام ـ ٢ » وسام ـ ٣ » وتجهيز مراكز قيادتها بأجهزة الاتصال المختلفة علاوة على تمهيد الطرق والمدقات الموصلة اليها ، ثم تحرك بطاريات الصواريخ واحتلالها لمواقعها جنبا الى جنب مع الوسائل المباشرة للدفاع المضاد للطائرات ووسائل الانذار المختلفة ، وبعد ذلك كله دفع مجموعات من مهندسى الأليكترونيات لضبط واختبار وتجهيز هذا العدد الهائل من المعدات الفنية لكى تكون كل هذه المعدات جاهزة للقتال فى خلال ساعات قليلة من احتلال مواقعها الجديدة والا أصبحت فريسة سهلة للطيران الاسرائيلى ·

طوال هذه الفترة كان السلاح الجوى الاسرائيلى قد كثف غاراته على الجبهة المصرية بصورة لم تحدث من قبل ، فقد كان يشعر أننا فى سبيل

الانتصار عليه مما سيضيع من هيبته وأكثر من ذلك أن رجاله سيعانون الكثير بعد أن يتمركز رجال دفاعنا الجوى فى مواقعهم الجديدة ، وفى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه التجهيزات على الجبهة كان رجالنا فى الخلف يحسنون أداء معدات الصواريخ « سام - ٢ » التى بدانا العمل بها منذ عام ١٩٦٣ - ويتم تدريب الأطقم الجديدة على المعدات والأسلحة الحديثة التى تسلمناها ، وجنبا الى جنب مع هذه التجهيزات بدأت قواتنا منذ أول يونيو ١٩٧٠ تتبع أسلوب كمائن الصواريخ فكان رجال الصواريخ يحتلون مواقع ميدانية فى الجبهة يجهزونها على عجل « بشكائر الرمل » ثم يشتبكون مع طائرات العدو فى أماكن لم يكن يحلم العدو بوجودهم فيها ٠

نتيجة لذلك كان أن بدأ الارتباك يدب بين صفوف الطيران الاسرائيلى وبدأ يشعر لأول مرة أنه ليس القوة الوحيدة فى هذه المنطقة وأن الموقف يتسيب من بين قبضته القوية وفى يوم ٣٠ يونيو ١٩٧٠ كان قد تم تنفيذ جميع مراحل الخطة المصرية الطموحة ، وعندما وصلت الطائرات الاسرائيلية تختال بقوتها فوق جبهة القناة اصطدمت بالواقع الاليم وتكبدت خسائر لم تكن تتوقعها ، ويصف لنا زئيف شيف هذا اليوم الخالد قائلا : « ان الليلة الواقعة بين ٢٩ و ٣٠ يونيو عام ١٩٧٠ سوف تذكر لفترة طويلة فى النزاع العربى الاسرائيلى كأحد التواريخ الهامة ، لقـــد انتهت فى تلك الليلة مرحلة من الحرب وبدأ فصل جديد ، ففى تلك الليلة تمت عملية ادخال الصواريخ الى الشبكة الجديدة على جبهة القناة وخلال ليلة واحدة تم ادخال عشر كتائب صواريخ الى قطاع عمقه حوالى ٣٠ كيلو مترا ، وفى الليلة التالية تم ادخال خمس كتائب أخرى الى نفس المنطقة ٠

ويضيف قائلا : « فى صباح ٣٠ يونيو بدأ الصدام : الطـائرات الاسرائيلية ضد الصواريخ المصرية ، وفى ساعات الصباح الباكر انطلقت الصواريخ الأولى فى التشكيل الجديد نحو الطائرات الاسرائيلية التى انطلقت لتقوم بمهمتها على الجبهة المصرية ، وخلال فترة وجيزة من الوقت اتضحت الصورة لقيادة سلاح الطيران الاسرائيلى ٠ كان من الواضح أن المصريين نجحوا فى ادخال عـــدد من كتائب الصـــواريخ الى القطاع الواقع بين

الاسماعيلية والسويس في منتصف الطريق بين القاهرة والقناة ، وتقرر الرد بسرعة حتى لا يتمكن المصريون من التمركز أكثر من اللازم ، وفي ساعات ما بعد الظهر خرج سلاح الطيران الاسرائيلي ليهاجم بطاريات الصواريخ الجديدة ، ومنذ اللحظة الأولى ميز الطيارون الاسرائيليون ان أسلوب اطلاق النيران متغير فقد انطلقت نحوهم عشرات الصواريخ وطارت طلقات النيران في كل ناحية وذلك بخلاف الصواريخ الصغيرة التي تطلق من فوق كتف الجنود مثل البازوكا (يقصد صواريخ سام ـ ٧) والتي كانت تبدو كالسجائر المشتعلة والتي زادت هي الاخرى من الضوضاء العامة . وفي البداية سقطت الطائرة الاولى ومن بعدها الطائرة الثانية (كلاهما فانتوم ف ـ ٤) واحتفل المصريون بانتصارهم وكان الذهول في اسرائيل هائلا » .

ويضيف شيف قائلا : وفي ٥ يوليو اتضحت الصورة تماما واسقطت طائرة فانتوم أخرى يقودها الطيار عاموس زمير ولعق سلاح الطيران الاسرائيلي جراحه ، وفي يوم السبت ١٨ يوليو ١٩٧٠ خرج سلاح الطيران الاسرائيلي لهجوم شامل على شبكة الصواريخ الجديدة وكانت الاصابات ناجحة واصيبت بعض بطاريات الصواريخ المصرية . ولكن اسرائيل دفعت ثمنا غاليا مرة أخرى اذ فقدت واحدا من أحسن طياريها ويدعى شموئيل حيتس (الذي تكلمنا عنه من قبل) .

بذلك كان رجال الدفاع الجوي المصري قد أحرزوا نصرا ساحقا على الطيران الاسرائيلي وفرضوا ارادتهم على هذا السلاح وكان ينبغي على اسرائيل حينئذ أن تدرك حقيقة هامة اثبتتها تلك التجربة العظيمة . وهي أن قواتنا تستطيع أن تتقدم الى أي مكان رغم التفوق الجوي الاسرائيلي وأن دفاعنا الجوي أصبح قادرا على شل فاعلية هذا السلاح الذي تعتمد عليه اسرائيل في كل شيء .

ولكن الاسرائيليين رفضوا قبول هذه الحقيقة الجديدة وعللوا نجاح المصريين الساحق في هذه المعركة بالوجود العسكري السوفييتي وروجوا لذلك في مختلف أنحاء العالم ثم كان القرار التاريخي للرئيس أنور

السادات بانهاء عمل المستشارين العسكريين السوفييت فى مصر وانتهت هذه الذريعة وعندما حاولت الطائرات الاسرائيلية فى مرات عديدة أن تستطلع أراضينا فى الفترة ما بين وقف اطلاق النيران وحرب أكتوبر ١٩٧٣ كانت الطائرات الاسرائيلية تتساقط رغم اتباع الطيارين الاسرائيليين لأعقد تكتيكات المناورة والخداع ، ورغم أسلحة الاعاقة الاليكترونية التى حصلوا عليها من الولايات المتحدة الأمريكية ·

عش الغراب

وعندئذ لجأت اسرائيل الى ذريعة جديدة فقالت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل « ان كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب كلما دمرنا احداها نبتت بدلها أخرى ، لقد زرع المصريون كل الأرض غربى القناة بالصواريخ والله وحده يعلم أين يجد المصريون مكانا لزراعة أعداد أخرى منها بالمنطقة » · ولم تدر مائير أنها كانت بذلك تشهد بكفاءة نجاح خطة الخداع والتمويه التى اتبعتها قوات الدفاع الجوى فى بناء هذا الحائط ، وأن ديناميكية هذه القوات التى اتبعت مبدأ « العمل تم العمل بسرعة » جعلت العدو فى متاهة بالنسبة لمكونات هذا الحائط الشهير ·

اقوى من أمريكا

ولقد كان أغرب ما سمعته فى هذا المجال ما نشرته مجلة القوات المسلحة الأمريكية فى عددها الصادر فى نوفمبر ١٩٧٣ (صفحة ٣٠) عندما قالت « ان قوة الدفاعات الجوية المصرية غربى قناة السويس تعادل تقريبا قوة اجمالى مصادر الدفاع الجوى الأمريكية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم » الى هذا الحد وصلت المبالغة التى يهدفون من ورائها أن يعزوا انجازاتنا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ الى الكثافة الخيالية للمعدات وليست الكفاءة العالية للمقاتلين الذين يقفون خلف هذه المعدات والذين أصبح العالم كله يعرف أنهم مصريون مائة فى المائة ·

وعندما اشتعلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ونجحت قوات الدفاع الجوى المصرى فى « بتر ذراع اسرائيل الطويلة » خرجوا الينا بذريعة أخرى تركزت بصورة مخيفة حول الصاروخ سام ـ ٦ ، لقد كان هذا الصاروخ هو السلاح الجديد الوحيد الذى ظهر بين قوات الدفاع الجوى فأرادوا تركيز الأضواء عليه ليقولوا انه هو السبب وراء المعجزة التى حققناها وللأسف ابتلعت بعض وسائل الاعلام العربية هذا الطعم وراحت ترقص على الأنغام التى تعزفها اسرائيل ٠

الى جانب هذه الحرب الاعلامية للنيل من قدرات مقاتلينا كانت هناك محاولات أخرى لم يذكرها العدو ، ومنها الاستعواض الهائل عن طريق الولايات المتحدة للطـائرات التى خسرتها اسرائيل من طراز فانتوم وسكاى هوك فكانت تصل ـ الى المطارات الاسرائيلية وبمقتضى الاتفاقية المبرمة بين البلدين فى هذا الصدد ـ صالحة للاستعمال فورا فوق جبهاتنا بعد طلائها بعلامات السلاح الجوى الاسرائيلى ، ومنها الدعم الأمريكى لاسرائيل . أثناء عمليات القتال بأحدث وسائل الاعاقة والشوشرة التى لم تكن أمريكا قد استخدمتها فى حرب فيتنام ومنها الأنواع المتقدمة من الصواريخ جو ـ أرض المضادة للرادارات . ومع ذلك استمر التساقط السريع المتلاحق للطائرات الاسرائيلية خلال حرب أكتوبر ٠

والسبب الرئيسى وراء ذلك كما أكده قائد الدفاع الجوى المصرى اكثر من مرة هو الكفاءة العالية لمقاتل الدفاع الجوى وشجاعته وقدرته على استدراج الطيـارين الاسرائيليين الى منـاطق قتل مؤكدة للأسلحة التى يستخدمها ، وبدأ العدو ينزعج من شجاعة المقاتل المصرى وانعكس ذلك واضحا فى سؤاله الأحمق لأحد اسرانا عن نوع « الحبوب » التى سمع أن الخدمات الطبية المصرية تصرفها للمقاتلين ولها تأثير كبير فى أدائهم فى المعركة « شجاعتهم » ٠

لمبة اليكترونية لا تعمل

أما عن الأسرى الذين وقعوا بين أيدينا ، فقد لمسوا الحقيقة بأنفسهم ، فقال أحد الطيارين الأسرى انه قام بالمناورة والابتعاد عن الصواريخ عندما أضاءت أمامه لمبة التحذير الاليكترونية ولكنه لن يكد يقوم بهذه المناورة الا وكان قد تلقى ضربة عنيفة من صاروخ آخر فاضطر الى القاء حمولته بعيدا عن الهدف محاولا الهرب ثم كان ان أصابه صاروخ آخر فقفز بالباراشوت ليهبط بين أحضاننا أسيرا ·

ومن أقوال طيار آخر أسير لقد كانت اصابتي مفاجأة لي حيث لم تضيء لمبة التحذير ولم أعرف أن هناك صواريخ أطلقت على ، وكانت هذه الحقيقة الجديدة هي احدى المفاجآت التي كان يخبئها رجال الدفاع الجوى لطياري اسرائيل ، وبواسطة هذه المجهودات التكنولوجية المعقدة استطاعوا أن يسقطوا الطائرات الاسرائيلية ·

كانت هذه بعض أقوال الطيارين الاسرائيليين أما وسائل الاعلام المعادية فقد اخترعت قصة أخرى تريد بها أن تحرمنا من قدراتنا العلمية والتكنولوجية في هذا المجال ، تقول هذه القصة ان المصريين استخدموا أسلوبا جديدا في اطلاق الصواريخ لجأ اليه الفيتناميون الشماليون في حربهم مع الولايات المتحدة وتعتمد هذه الطريقة على اطلاق حزمة من الصواريخ بصريا ودونما الاستعانة بنظام التوجيه الرادارى المعقد والذى يحتاج الى خبرة فنية عالية ، وكانت اصابات الطائرات الاسرائيلية نتيجة اطلاق هذا العدد الهائل من الصواريخ · ومعنى ذلك أننا أسرفنا في استخدام الصواريخ على حساب الجانب الاقتصادي للمعركة وبسبب افتقارنا الى الخبرة الفنية التكنولوجية ·

والحقيقة وكما يشهد الطيارون الاسرائيليون الأسرى أننا استخدمنا أقل عدد من الصواريخ في اسقاط هذه الطائرات ، كان الرجال يطلقون صاروخا واحدا ثقة في قدرتهم وحرصا على ذخيرتهم وقد علقوا جميعا في كبائنهم لافتة مكتوبا عليها : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » ·

والايمان ظاهرة منتشرة بين قوات الدفاع الجوى لأنهم يحتاجون دائما الى طاقة هائلة منه يستطيعون بها أن يصمدوا ليلا ونهارا فى حالة استعداد دائم للقتال ـ سواء فى الحرب أو السلم ـ ثم يحتاجون الى الايمان مرة أخرى ليصمدوا فى وجه الطائرات الشرسة عندما تصل فوق مواقعهم وينشب التراشق بينهما بكل أنواع القنابل والصواريخ والمدافع ٠

ولم يقتصر الأمر خلال حرب أكتوبر على القتال بتلك الأسلحة بل ظهرت صواريخ جو ـ أرض المضادة للرادارات من طراز « شرايك والصواريخ التليفزيونية » وغيرها فأصبح الموقف يحتاج الى الخبرة والعلم بجانب الشجاعة والصمود ، وهو ما تعلمه الرجال فى مدرسة النار والدم ابان معارك الاستنزاف أثناء بناء حائط الصواريخ ٠

كعب أخيل

وعندما بدأت مدرعاتنا وأسلحتنا التقليدية تتدفق عبر القناة تحركت معها شبكة تكتيكية للدفاع الجوى لتشتبك مع الطائرات الاسرائيلية على أبعد مسافة ممكنة ، فأصبحت بمثابة جدار أمامى للحائط الشهير ، واكتسبت مظلة الدفاع الجوى عمقا أكبر فى سيناء ، وبتخطيط مسبق كانت هذه المظلة دائرية تغطى جميع الاتجاهات وجميع الارتفاعات ، وكان الطيارون الاسرائيليون يستخدمون كل ما تعلموه من فنون الهجوم الجوى ولكنهم فشلوا فى جميع هذه المحاولات ، ومع ذلك فقد كانت هناك دائما نقطة ضعف خطيرة فى هذا النظام المعقد ، وهى ظاهرة عامة نعرفها نحن والعدو وكل العاملين فى هذا المجال ، ويحلو للبعض أن يسميها «كعب أخيل» (١) وكانت أن هرعت اسرائيل الى الولايات المتحدة وحصلت منها على «سهام» خاصة فى آخر محاولة لاصابة هذا « الكعب » فى مقتل ٠

---

(١) تقول الاساطير الاغريقية القديمة أن «أخيل» كان مقاتلا شجاعا لاتنفذ السهام لأى مكان فى جسده باستثناء كعب قدميه وذلك لأنه فور ولادته غمسته أمه فى بحيرة الخلود «ستايكس» ولما كانت تمسك به من كعبيه فلم تمس المياه هذين الجزءين وجاءت نهايته بسهم أصابه فى كعب قدمه (نقطة الضعف الوحيدة) ٠

إلكترونيات .. وإلكترونيات مضادة

● الكترونيات ..
والكترونيات مضادة

تتمثل نقطة الضعف ـ او كعب أخيل كما ذكرنا فى الفصل السابق ـ فى ان هناك من الوسائل العلمية والفنية الحديثة ما يستطيع أن يبطل تماما عمل جميع الأجهزة التى تعتمد على الاليكترونيات فى أداء عملها ، وتتكون هذه الوسائل من مجموعة اجراءات اليكترونية مضادة يقوم بها الخصم فاذا برادارات خصمه عمياء لا ترى شيئا ، وصواريخه تخرج عن مسارها بعيدا عن الأهداف الحقيقية ، وجميع أجهزة اتصاله صماء بكماء لا تسمع ولا تتكلم ... وللقارىء أن يتصور مدى العجز وأبعاد الكارثة التى ستحل بخصم يتعرض لهذه الاجراءات الاليكترونية المضادة دون أن يستطيع عمل شيء حيالها ، او أن يكون على استعداد لحدوثها ثم تلافى تاثيرها والعمل على استمرار أداء الأسلحة التى يملكها بنفس الفاعلية والكفاءة التى كانت عليها .

وعندما ترتقى المعارك الحربية الى هذا المستوى فانها تكون بذلك قد وصلت الى الآفاق اللانهائية لما يسمى بالحرب الاليكترونية .

وتعتبر هذه الحرب من أحدث وأعقد أنواع الحروب عامة ، وهى تحتاج الى كفاءات وخبرات متقدمة جدا تحتاج سنوات طويلة من العلم والدراسة

الأمر الذى دعى موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى أن يعلن فى عام ١٩٧٠ بكل الزهو والكبرياء : « ان الصيف القـــادم سيكون صيفا اليكترونيا ساخنا » .

التواضـع والكبرياء

وفى ذلك كان ديان يكشف أوراقه وهو واثق كل الثقة أن المصريين والعرب عموما لن يستطيعوا أن يلموا بقواعد هذه اللعبة الصعبة ، وانهم متأخرون سنوات طويلة فى هذا المجال الأمر الذى لن يجعلهم قادرين فى المستقبل القريب أو البعيد عن خوض غمار هذه الحرب المتقدمة .

وبكل التواضع والايمان قال الرئيس المصرى أنور السادات فى احدى خطبه « لقد كتبت علينا أول حرب اليكترونية فى التاريخ ونحن نستعد لها » ، وبالفعل كان رجالنا يقتحمون آفاق هذا المجهول بجدية ومثابرة وسرية تامة ، وجاءت معارك أكتوبر ـ وربما يسمع القارئ العربى عن ذلك لأول مرة ـ يطغى عليها الطابع الأليكترونى منذ بدايتها حتى نهايتها ، بل حتى خلال فترات طويلة فيما قبل هذا التاريخ المجيد ، وكان أن تلقى ديان وجيشه خريفا اليكترونيا معتما فى أول حرب اليكترونية شهدها العالم .

وحتى نضيف بعدا جديدا لحرب أكتوبر ، وفى رأيى انه من أهم الأبعاد قاطبة ، يجدر بنا أن نلقى بعض الضوء على هذا المجال الغامض ، ذى الأجهزة الضئيلة التى تمتد أطرافها الى مئات الكيلومترات ، والتى تمثل قمة العلم والتكنولوجيا فى الحرب الحديثة .

كلنا يعرف أن أنظمة التسليح الحديثة تعتمد اعتمادا أساسيا على الوسائل الاليكترونية ، بل ان استخدام هذه الوسائل هو السبب الرئيسى فى الطفرة الهائلة التى حققتها الأسلحة الحديثة ، خلال الآونة الأخيرة ، وجعلت منها ضربا من ضروب السحر ـ وتشمل هذه الوسائل :

١ ـ أجهزة الرادار بأنواعها المختلفة فى البر والبحر والجو .

٢ ـ أجهزة الاتصالات اللاسلكية بجميع أنواعها فيما بين مختلف الوحدات والتشكيلات والقيادات ٠

٣ ـ أجهزة التحكم من البعد (كما هو الحال فى قيادة الطائرات التى تحلق بدون طيارين والتحكم فى مسارها) ٠

٤ ـ أجهزة الاستطلاع الأليكترونى ٠

٥ ـ أجهزة الاستطلاع الجوى ٠

٦ ـ أجهزة القيادة والسيطرة ٠

٧ ـ أجهزة توجيه الصواريخ وبعض أنواع المدفعيات ٠

٨ ـ الأجهزة الملاحية والفلكية والتى تقوم على استخدام موجات الراديو ٠

٩ ـ أجهزة الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية ٠

١٠ـ التليفزيون ودوائره المختلفة المستخدمة فى الاشراف على سير المعارك وفي بعض أنواع القنابل والصواريخ ٠

١١ ـ الأجهزة التى تعمل بالترانزستور ٠

وأنواع أخرى عديدة يصعب حصرها ولكنها فى الغالب مشتقة من احدى هذه الوسائل ـ ودعنا الآن نأخذ طائرة القتال الحديثة كنموذج يوضح مدى توغل الوسائل الأليكترونية فى معدات القتال الحديثة ، وسوف نجد أن الطائرات الحديثة تعتمد على الوسائل الأليكترونية فى تنفيذ المهام التالية :

ـ جميع أنواع الاتصالات بينها وبين الطائرات الأخرى وبين مراكز القيادات البرية وبين القطع البحرية والوحدات البرية (أثناء عمليات المعاونة الجوية لهذه الوحدات والأسلحة) ٠

ـ عمليات الاعتراض التى تعتبر من أهم عمليات الدفاع الجوى ٠

ـ تحديد موقع الطائرات وارتفاعها وبعدها عن أى هدف ٠

- تحديد الأهداف التى تهاجمها سواء فى البر أو البحر أو الجو ·
- عمليات التنشين على الأهداف المختلفة ·
- توجيه الصواريخ جو ـ جو التى تحملها ·
- التحكم فى نيران المدافع التى تحملها الطائرة ·
- عمليات الملاحة الجوية والهبوط أثناء الأحوال الجوية السيئة أو أثناء الليل ·
- وسائل خداع دفاعات الخصم الجوية ·

أهداف الحرب الأليكترونية

وتعتبر هذه فكرة بسيطة عن مدى تداخل الوسائل الأليكترونية فى أنظمة التسليح الحديثة وبالتالى مدى تأثير هذه الوسائل على انجازات وكفاءة تلك الأسلحة أما عن هدف الحرب الأليكترونية فينحصر فى عاملين ·

١ ـ تمكين وحداتنـــا من الاستغلال الفنى والتكنيكى لمعداتنا الأليكترونية استغلالا كاملا ، والحفاظ على جسن أداء هذه المعدات أثناء عمليات القتال بأن نمنع العدو من النجاح فى التأثير عليها بأية وسائل مضادة ·

٢ ـ حرمان العدو من استخدام هذه الوسائل الأليكترونية ، والتأثير عليها تأثيرا مستمرا لمنعها من أداء مهامها الحيوية المتعددة ولقد كنا نعرف دائما أن العدو الاسرائيلى يسبقنا فى الخبرة الأليكترونية وأنه كان يتباهى دائما بقدرته فى هذا المجال ، كذلك كنا نعرف أن الخبرة الأمريكية فى حرب فيتنام وخاصة فى هذا المجال الحيوى ، كانت تقدم بسخاء الى العدو الاسرائيلى ليجابهنا بها عندما يتجدد القتال خاصة وأن أسلحتنا من نفس أنواع الأسلحة التى كان يستخدمها الفيتناميون ، ومع ذلك نستطيع القول بأننا حرمنا العـــدو من الحصول على أية معلومات عن معدات القتال التى نستخدمها ، والتى تدخـــل الوسائل الأليكترونية فى صلب تكوينها واستطعنا بالفعل خلال حرب أكتوبر أن نفاجئه بسيل متدفق من الاشعاعات

اللاسلكية والكهرومغناطيسية التي لم يكن يعرف عنها شيئ
الحـرب ، وكان الأمر يحتاج الى وقت طويل يقوم خـلاله خ
الأليكترونية فى اسرائيل ، ومن وراءهم من خبراء أكثر علما واقتدارا .
بتحليل هذه الاشعاعات وقياس أطوالها وترددانها حتى يمكنهم استنباط وسائل مضادة تعوق عمل طائراتنا وصواريخنا واجهزة القيادة والسيطرة على وحداتنا التي كانت تتدفق شرقا ٠

من هنا كانت طائرات السلاح الجوى المصرى تضرب فى أعماق سيناء دون أن يعوقها شيء ، وكان جهاز الدفاع الجوى المصرى على استعداد دائم للتعامل مع أية طائرة للعدو تقترب من مجالنا الجوى ، وكانت قواتنا البرية مترابطة على الدوام ومتماسكة لأن الاتصال بين الوحدات بعضها وبعض وفيما بينها وبين القيادات المختلفة ظل قائما وعلى درجة عالية من الكفاءة وحسن الأداء منذ اللحظة الأولى لبدء العمليات (الساعة الثانية فى ظهر يوم ٦ أكتوبر) حتى بدء سريان وقف اطلاق النيران ٠

وليس معنى هذا أن العدو وقف مكتوف الأيدى مذهولا ولكنه حاول مرات عديدة ، وفى كل مرة كان رجال الحرب الأليكترونية المصريين يجدون الحل السريع الحاسم لازالة آثار اية اجراءات اليكترونية مضادة من جانب العدو ٠ لقد حاول مثلا أن « يعمى » أجهزة الرادار المستخدمة فى عمليات الانذار عن الجمهورية ، ولكن هذه الأجهزة ظلت طوال أيام القتال تعمل بكفاءة بالغة ولم يحدث ولو مرة واحدة ـ أن اقتحمت طائرة للعدو مجالنا الجوى دون وصول انذار عنها كما حدث فعلا فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، وذلك بفضل دراية العاملين فى مجال الرادار بالاجراءات المضادة وكيفية التعامل فى مثل هذه المواقف ٠

محاولات وذهول

حاول أيضا أن يعمى أجهزة الرادار المستخدمة فى توجيه الصواريخ سام ارض ـ جو بعد أن ألهبت هذه الصواريخ ظهر السلاح الجـــوى الاسرائيلى ، ورأينا بأنفسنا أن وحدات صواريخ الدفاع الجوى ظلت تعمل

بكفاءة نموذجية طوال فترة الحرب ، وكان أن تحدث العالم كله عن كفاءة هذه الشبكة وانجازاتها الباهرة ، ويجوز لنا فى هذا المجال أن ننوه مرة اخرى بكفاءة ، الرجال وراء المعدات ، فنقول أن نفس هذه المعدات التى حققت هذا النجاح الساحق ، كان يمكن أن تصبح قطعا صماء من الصلب لو أن الرجال الذين يقفون خلفهـا تنقصهم الدراية والخبرة والمعلومات الحديثة ، التى يمكنهم بواسطتها تفادى كارثة تحول معداتهم الى قطع عمياء صماء من الحديد والصلب .

حاول العدو أيضا : استخدام عواكس ركنية فى طائراته ووسائل خداعية من أحدث ما توصلت اليه الترسانة الأمريكية لخداع أجهزتنـا الرادارية واستنفاد ذخيرتنا من صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات ، بحيث تأتى موجات أخرى من طائرات قتاله ، وتضبط ، وحداتنـا فى الفترة الحرجة لاعادة التعمير ، ومع ذلك كانت موجاته تلك تأتى مطمئنة فتفاجأ بسيل من النيران لم تستنفده طلعات الخداع التى سبقتها فتكون النتيجة مزيدا من طائراته تتساقط فوق أراضينا .

لجأ العدو الى تركيز استخدام الصواريخ ، شرايك ، جو ـ أرض الشهيرة التى تركب أشعة الرادار المنبعثة فى الجو ـ ومن على مسافات بعيدة آمنة ـ ثم تتجه اليكترونيا الى مصدر هذا الاشعاع وتدمره وكانت النتيجة دائما ـ رغم أن تلك الصواريخ عالية الكفاءة والفعالية سقوط صواريخ ، شرايك ، بعيدا جدا عن أهدافها وتستطيع أن تشاهد العديد منها فى معرض الغنائم للقوات المسلحة المصرية .

كذلك حاول العدو أن يقطع الاتصال اللاسلكى بانواعه المختلفة بين وحداتنا البرية ، بعضها ببعض من جانب وبينها وبين القيادات المختلفة من جانب آخـر ، حتى تتشتت أوصال هذه الوحدات ويعزلها تمهيدا للانقضاض عليها والنيل منها ومع ذلك كانت وحداتنا البرية متماسكة كرجل واحد شرق وغرب القناة تتلقى تعليماتها فى حينها وتقوم بتنفيذ مهامها بتناسق خيالى ، والكل يلم بالصـورة الصحيحة للموقف دونما تخبط أو مفاجآت من أى نوع .. والأمثلة عديدة ومتنوعة ولكننا نقول

باختصار أنه لم تكن هناك « ليبرتى » من أى نوع خلال حرب أكتوبر المجيـدة •

استعدادات مسبقة

ونحب أن نقول أيضا أنه لولا تنفيذ هذا الهدف الأول للحرب الأليكترونية من جانبنا والحيلولة دون حصول العدو اليكترونيا عن اية معلومات عما كان يجرى داخل أراضينا فى الآونة التى سبقت السادس من أكتوبر لما أمكن اطلاقا تحقيق المفاجأة الهائلة التى حققناها فى الساعة الثانية من ظهر هذا اليوم ، واذا ما وضعنا فى اعتبارنا تقدم اسرائيل فى هذا المجال ، علاوة على أقمار التجسس الأمريكية التى تجوب الفضاء فوقنا كل يوم وحزام التجسس الأليكترونى الأمريكى الذى يحيط بالمنطقة كلها على شكل محطات أرضية مقامة فى عدد من الدول الأوربية الافريقية والآسيوية ، لأمكننا عندئذ أن نتخيل صورة النجاح الذى حققناه فى هذا المجال : لم يخرج من عندنا سر واحد فى مجال الأليكترونيات فيستقبله الأعداء ويردوه الينا سيفا قاطعا •

وهناك أيضا من محاولات العدو فى مجال الحرب الأليكترونية لجوءه الى استخدام طائرات استطلاع بدون طيارين ، التى تعتبر وسيلة بارزة من وسائل الحرب الأليكترونية فالطائرة كما يظهر من اسمها لا يقودها طيار بل أجهزة اليكترونية معقدة يقوم بتشغيلها أحد الفنيين فى الخطوط الخلفية ويتم ارسال المعلومات الى هذه الطائرة لاسلكيا فتمر على جهاز خاص للتشفير (من شفرة) المعـلومات ، ثم ارسالها الى جهاز آخر فى الطائرة يقوم بحل رموز الشفرة ، ويحول التعليمات اللاسلكية الى حركة ميكانيكية تحرك الذيل والأجنحة والزعانف لتأخذ مسارا معينا . كذلك فهى مجهزة بعواكس ركنية لخداع أجهزة الرادار والصواريخ ، ومع ذلك باءت تلك المحاولات ، رغم تعقيدها ، بالفشل وتمكنا من اسقاط ٣ طائرات من هذا النوع أثنين من طراز « رايان فايربى — ١ » وواحدة من طراز « شوكار » (وهناك طائرة من نفس الفصيلة أسقطت على الجبهة السورية

ويرجح وجود أعداد أخرى أسقطت بعيدا عن وحداتنا البرية وذلك في الوقت الذى تعتبر فيه الطائرات التى تعمل بدون طيارين هي أحدث صيحة في عالم الطيران وأمل المستقبل في خوض حرب جوية تعتمد على الوسائل الأليكترونية بدلا من الطيارين الآدميين وحفاظا على أرواحهم ٠

أما فيما يختص بالناحية الأخرى ونشاطنا نحن على الناحية الأخرى ، فقد كان مختلفا تماما وما حدث في هذا الصدد نعرفه نحن ويعرفه العدو جيدا وان كان العالم ـ تحيزا أو عن عدم فهم كامل ـ لم يدرك بعد أبعاد الصورة ، لقد كان هناك نشاط اليكتروني ضخم قبل بدء المعارك وكنا نرصد كل نشاط العدو الأليكتروني ليلا ونهارا وليس سرا الآن ما فعلناه في هذا الصدد بعد أن رأى العدو نتيجة هذا النشاط ولمسه بنفسه أثناء هجماتنا عليه وهجماته علينا ٠

كنا نراهم ولا يروننا

استطعنا أن نحدد مواقع رادارات العدو وأنواعها وتردداتها ودرجة كفاءتها ، ومن هنا استطعنا أن نرسم خط سير طائراتنا عند توجيه الضربة الجوية المركزة الى أعماقه ، ويحسن بنا أن نلقى بعض الضوء على هذه العملية المعقدة تسهيلا لتصور القارىء واقناعا بامكانيات تحقيق ذلك بشيء من الصبر والمثابرة ٠

ان محطات الرادار تشع موجاتها في الجو ، وعند تجهيز أجهزة استقبال خاصة تستطيع أن تستقبل هذه الموجات ، وبالتوليف وتكرار المحاولة نستطيع أن نكتشف ترددات هذه المحطات بل نستطيع أيضا أن نحدد جنسيتها فمثلا :

ـ تعمل المحطات الأمريكية بتردد نبضى من ٢٠٠ ـ ٣٦٠ سيكل ومن ٣٠٠ الى ٤٠٠ سيكل ٠

ـ تعمل المحطات الانجليزية من ٢٥٠ ـ ٢٧٠ سيكل ومن ٢٢٠ الى ٥٥٠ سيكل ٠

ـ تعمل المحطات الفرنسية من ٢٠٠ ـ ٢٧٠ سيكل ومن ٤٠٠ الى ٧٠٠ سيكل ٠

ـ تكون سرعة دوران هوائى محطات رادار أنذار من ٤ ـ ٦ ـ دورة فى الدقيقة ٠

ـ محطات توجيه المقاتلات تصل الى عشرات الدورات فى الدقيقة الواحدة٠

ـ أجهزة قياس الارتفاع راداريا (قياس ارتفاع الطائرات المحلقة فى الجو) تكون سرعة دوران هوائياتها غير منتظمة مع ازاحة منتظمة فى الزاوية بمعدل ٤ درجات ٠

ـ تكون سرعة دوران هوائيات محطات الرادار الثابتة أقل عموما منها فى المحطات المتحركة ٠

وقد كان لهذا عظيم الأثر أثناء تعامل قواتنا الجوية معهم فيما يتعلق بتفادى كشف رادارات العدو لطائراتنا ثم سهولة مهاجمة هذه المحطات نفسها ولقد سمعنا جميعا عن ضرب « أم خشيب » ، « وأم مرجم » وما لم نسمعه أنه بجانب هذين الموقعين ضربنا أيضا « الطاسة » و « تل الفضة » وكلها كانت مواقع حيوية ثم كشف النقاب عنها بالاستطلاع الأليكترونى المصرى وعرف أنها مراكز حيوية تحوى اجهزة اليكترونية معقدة للاستطلاع والاعاقة وعمليات توجيه المقاتلات الاسرائيلية ، لاعتراض مقاتلاتنا وقاذفاتنا المقاتلة ٠

ولا يخفى عن أحد أهمية عمليات الاعتراض فى الدفاع الجوى عن اية دولة ، فما بالك وان هذه العمليات بالنسبة للعدو كانت تتم اليكترونيا بدون تدخل موجهين ارضيين وبواسطة عقول اليكترونية ـ من صنع شركة هيوز الأمريكية ـ تقوم بتحديد مكان الهدف المعادى وعدده وارتفاعه وسرعته ثم تعطى الأوامر اليكترونيا لأنسب قاعدة جوية اسرائيلية لاتمام عملية الاعتراض وبعد خروج المقاتلات من هذه القاعدة تقوم العقول الأليكترونية بتغذية شاشة معينة أمام الطيار الاسرائيلى بكل المعلومات التى ينبغى اتباعها (السرعة والاتجاه والارتفاع) حتى يمكن اعتراض

طائراتنا فى أنسب وقت ومكان ، وبعد تدمير هذه المواقع الحيوية حدث ما يسمى « بتمزيق » فى شبكة الدفاع الجوى الاسرائيلية الأمر الذى أحدث فوضى هائلة فى نظام هذه الشبكة التى أنفقت عليها اسرائيل أموالا طائلة وزودتها الولايات المتحدة الأمريكية بأحدث ما تملك فى هذا المجال ٠

صـوب جميع قواتهم

أما فيما يختص بالقوات البرية الاسرائيلية فمن المعروف جيدا ان العصب الرئيسى الذى يربط تشكيلات هذه القوات هى وسائل القيادة فى السيطرة التى تتمثل فى أجهزة الاتصال اللاسلكى بأنواعها وتردداتها المختلفة وبدون اتمام هذه الاتصالات بين القيادات والتشكيلات المختلفة لا يمكن تنفيذ الأوامر والتعليمات والمهام المختلفة ولا يمكن أيضا أن يلم احد بالصورة الحقيقية للموقف العسكرى الماثل أمامهم على جبهة تمتد ١٨٢ كيلو مترا ٠

وخلال عمليات أكتوبر وبسبب ما سبقها من جهد وصبر ومثابرة فى المجال الأليكترونى تمكنا من تقطيع أوصال العدو اليكترونيا فكنا نعرف ما يفعله ، وما ينوى أو يتمنى أن يفعله ، فى حين أن معظم وحداته لم تكن تعرف شيئا ومن هنا كانت المفاجأة على المستوى التكتيكى وفى خضم عمليات القتال رغم درايتهم الكاملة بأن الحرب دائرة ، وحتى عندما حاولت طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى أن تهاجم أهدافنا الحيوية (المعابر التى بنيناها على قناة السويس لتتدفق قواتنا عليها الى الضفة الشرقية للقناة والقواعد الجوية ووحدات وتشكيلات الدفاع الجوى المصرى) كان العدو يفاجأ بغلالتين :

١ ــ غلالة فعالة مرئية من نيران عناصر الدفاع الجوى المختلفة ٠

٢ ــ غلالة أخرى غير مرئية من الاجراءات الأليكترونية المضادة لاعاقة عمل الأجهزة الأليكترونية المختلفة التى تحملها طائراته الأمر الذى كان يجعل الطيار الاسرائيلى قابعا محتارا داخل طائرته ، لا يلقى أية مساعدات من أجهزته الأليكترونية المعقدة التى اعتقد أنها نوع من السحر

الأسود لا علاج له ، يمارسه مع خصم من القرون الوسطى يفزع من السحر والغموض ولا يعرف أنواع العلاج العلمي الحديث ، وباختصار شديد كانت « ليبرتي » معنا خلال هذه الجولة ولكنها « ليبرتي » مصرية يديرها رجال مصريون ٠

السهام الجديدة

وبدلا من أن يذهلونا كان أن أذهلهم رجالنا بخبراتنا فى هذا المجال واتقاننا لمختلف وسائل وأساليب هذه الحرب المتقدمة ، ولذلك طلبت اسرائيل من الولايات المتحدة تزويدها بوسائل اليكترونية أكثر تقدما وبالفعل أعلنت الدوائر الأجنبية أن اسرائيل حصلت على أجهزة خداع وتشويش حديثة وعلى درجة عالية من الكفاءة والتعقيد ولم تكن الولايات المتحدة نفسها قد استخدمتها بعد فى أية حرب أو أى مكان ، وجاءت الطائرات الاسرائيلية على عجل تجرب « السهام الأمريكية الجديدة » ٠٠ ومع ذلك ظل « أخيل خالدا » ٠٠ وطاشت تلك السهام بدورها وسط دهشة الاسرائيليين والدوائر المختلفة لصناعة الأسلحة الأمريكية ٠٠ فكان لابد من محاولة أخيرة لانقاذ سمعة العسكرية الاسرائيلية ، وكبح هذه الانتصارات المصرية المذهلة ٠٠ وجاءت مغامرة «شارون» وعملية الثغرة ٠

الثغرة مابين الأرض والسماء

● الثغرة ..
ما بين الأرض والسماء

جاءت الثغرة الاسرائيلية ، عبر خطوطنا الى منطقة غرب القناة خليطا من الأفكار الألمانية والأمريكية والفرنسية والفيتنامية .

بدأت أول ما بدأت مع أول ضوء يوم ١٠ مايو عام ١٩٤٠ ، هناك عند سيدان على نهر الميز ، عندما اخترق الفيلق التاسع عشر المدرع خط الدفاع « الفرنسي » الشهير « ماجينو » وكان يقود هذا الفيلق « الألماني » الجنرال الشهير جودريان ، وكان في مقدمة هذا الفيلق الفرقة السابعة المدرعة أو « الفرقة الشبح » يقودها الجنرال أروين روميل ، وانطلق الفيلق ١٩ بعدئذ بسرعة خاطفة نحو بحر المانش ، وكان ان انهارت فرنسا لعدم وجود احتياطيات خلفية لديها كما ذكرنا من قبل .

كذلك استوحى الاسرائيليون فكرة الثغرة من العمليات الباهرة التى قام بها الجنرال الأمريكي الشهير « جون سميث باتون » الذى ساهم فى مبدأ القيام بعمليات جريئة وسريعة الحركة بواسطة المدرعات والتى أصبحت مقترنة باسمه بعد ذلك . وطبق هذا المبدأ فى حملة شمال افريقيا (١٩٤٢) عندما قاد الجيش السابع الأمريكي فى غزوة سريعة فأمكنه الاستيلاء على « باليرمو » (عاصمة صقلية) ، وقد وصل باتون الى

أوج مجده فى صيف عام ١٩٤٤ عندما كان قائدا للجيش الثالث واكتسح به فرنسا المحتلة فى حملة خاطفة تميزت بالمبادرة الفائقة والتقدم بلا هوادة واغفال كل القواعد العسكرية الكلاسيكية ، وقد كان لهذا الجنرال الأمريكى الشهير تأثير خاص على الفكر العسكرى الاسرائيلى خاصة وأن من جنرالات اسرائيل من كان يعتقد أنه صورة مكررة لهذا الجنرال الأمريكى الشهير ألا وهو الجنرال أريل شارون ، الذى تقمص شخصية هذا الجنرال الأمريكى الى حد بعيد ، كما سنرى فيما بعد ، وأصبح يسمى «باتون الاسرائيلى» ·

وفى حرب فيتنام لجأ الأمريكيون الى استخدام قوات الكوماندوز فى الاغارة على بعض بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات التى يملكها الثوار، بعد أن نشطت هذه الصواريخ فى التعامل مع الطائرات الأمريكية ، وكان أسلوب تدميرها بواسطة قوات الكوماندوز أكثر فعالية وأقل تكلفة من تدميرها عن طريق الجو بواسطة طائرات القتال ·

وهكذا فانه بعد أن نجحنا فى عام ١٩٧٠ فى اقامة شبكة الصواريخ المنيعة غربى قناة السويس وأصبحت تشكل خطرا كبيرا على سلاح الطيران الاسرائيلى ، بدأ التفكير فى عملية اغارة ضخمة تقوم خلالها وحدات من الكوماندوز الاسرائيلية بالعبور الى الضفة الغربية ومهاجمة بطاريات صواريخ « سام » من الأرض وتدميرها لاعادة فتح السماء مرة أخرى أمام الطيران الاسرائيلى فوق جبهة القناة ، وهكذا تم تحديد مكان العبور بقطع من الطوب الأحمر وتم تخفيف الساتر الترابى هناك للاسراع بشق فتحة خلاله فى حالة ما اذا تقرر تنفيذ هذه الخطة ·

وتقرر حينئذ أن يتولى قيادة هذه العملية الجنرال أريل شارون المشهور بالجرأة والاندفاع والميل الى المغامرات الجريئة من هذا النوع ، وانتهت المسألة عند هذا الحد لانه كما سيظهر فيما بعد ـ كان من المستحيل تدمير بطاريات الصواريخ المصرية وهى محاطة من كل جانب بالقوات البرية الهائلة التى كانت متمركزة فى قطاع قناة السويس خلال فترتى الصمود والاستنزاف وحتى يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ ·

وبعد أن نشب القتال فى هذا اليوم التاريخى وتمكنت قواتنا البرية

من اجتياح دفاعات العدو المنيعة والتمركز داخل سيناء ، ثم تمكنت قوات دفاعنا الجوى من تحقيق انجازات باهرة مع العدو الجوى الاسرائيلى ، ولما كان نجاح أية عمليات اسرائيلية يعتمد بالدرجة الأولى على استخدام قواتها الجوية بكفاءة وحرية تامة ، ولما كانت اسرائيل قد فشلت فى تدمير شبكة الدفاع الجوى المصرية من الجو ، ثم فشلت مرة أخرى فى ابطال مفعولها بواسطة الوسائل الأليكترونية ـ تلك التى كانت متاحة لديها قبل المعارك والأخرى التى حصلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية أثنـاء سير القتال وبعد تطوراته ـ فقد أصبح لزاما على اسرائيل أن أرادت تغيير مسار الأحداث أن تقوم بتنفيذ الآتى :

١ ـ مهاجمة بطـاريات الصواريخ المصرية وتدميرها عن طـريق الهجمات الأرضية لفتح الطريق أمام الطيران الاسرائيلى للعمل بحرية فى هذه المنطقة .

٢ ـ نقل المعركة الى غرب القناة لوقف تقـدم القوات المصرية فى سيناء ، وبث الذعر فى صفوف هذه القوات المصرية عندما تدرك أن العدو يعمل فى خطوطها الخلفية .

٣ ـ مجابهة القادة المصريين بموقف جديد طارىء ومفاجىء قد يحدث فى نفوسهم ما حدث فى عام ١٩٦٧ وينهار أعظم ما حققته مصر من أعمال عسـكرية .

وبذلك كان نجاح الخطة الاسرائيلية يعتمد على الجانبين : المصرى والاسرائيلى .. تقوم اسرائيل باحداث الفعل ثم يأتى رد الفعل المصرى كما تريده اسرائيل تماما ، وتتكرر النكسة بصورة أبشع من يونيو ١٩٦٧ وتنطلق اسرائيل من قاع الهزيمة الى قمة المجد العسكرى ، وكان كل ذلك يعتمد على شىء واحـد ، أن يفقد القـادة المصريون أعصابهم .. تصوروا مسـتقبل أمة بأكملها سيهوى الى الحضيض اذا فقد حفنـة من الرجال أعصابهم !

وجنبا الى جنب مع هذه الأحداث كان يجرى ما يلى :

١ ــ الجنرال أريل شارون وهو المتطوع الوحيد لتنفيذ هذه المغامرة وتحمل كافة تبعاتها ٠٠ كان يلح باستمرار للسماح له بتنفيذ العملية ٠

٢ ــ كانت معارك الدبابات الرئيسية تدور فى القطاع الأوسط من الجبهة وقد تكبدت اسرائيل خلالها خسائر فادحة (كما رأينا من قبل) وكان المكان الذى سبق تحديده لتنفيذ خطة الثغرة يقع عند منطقة الدفرسوار أى فى القطاع الأوسط أيضا ، وعلى امتداد المنطقة التى تدور فيها ــ ومن المتوقع أن تجرى خلالها ــ معارك الدبابات الرئيسية . ومن هنا فان تدمير بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات الموجوده فى هذه المنطقة غربى قناة السويس معناه احداث فجوة فى السماء مركزها فى منطقة الدفرسوار وتمتد دائريا فى جميع الاتجاهات فتستطيع الطائرات الاسرائيلية أن تتمتع فى اى مكان منها بحرية العمل الأمر الذى سيساعد سلاح الطيران الاسرائيلى على تقديم المعونة اللازمة لقواته البرية المشتركة فى القتال مع قواتنا البرية فى القطاع الأوسط من الجبهة ، والأمر الذى قد يحسم هذه المعارك لصالح اسرائيل ٠

٣ ــ كانت العسكرية الاسرائيلية قد منيت بسلسلة متتالية من الهزائم الشنعاء وكانت اسرائيل فى أمس الحاجة الى احراز أى نوع من النصر ينقذ سمعتها أمام العالم ٠

« اس ٠ آر ــ ٧١ »

٤ ــ فى يوم السبت ١٣ آكتوبر ١٩٧٣ اخترق مجالنا الجوى طائرتى استطلاع أمريكيتين من طراز « اس ٠ ار ٧١ » (*) من شمال بور سعيد حتى جنوب خليج السويس ، ثم اتجهتا غربا الى نجع حمادى ثم شمالا الى القاهرة ، ثم شرقا مخترقة قناة السويس من منتصفها تقريبا وبعد ذلك الى أعماق سيناء فاسرائيل ثم سوريا وأقفلتا عائدتين الى قاعدتهما فى

(*) فى اول سبتمبر عام ١٩٧٤ اشتركت تلك الطائرة لأول مرة فى معرض فارنبورة للطيران (فى انجلترا) وسجلت ارقاما عالمية لم يسبق لها مثيل ، اذ عبرت الاطلنطى فى ساعة واحدة و ٥٥ دقيقة ، أى بسرعة ٣٣٦٠ كيلو مترا فى الساعة وسط دهشة واعجاب الدوائر العالمية التى وصفتها بأنها تبرق فى الجو بمعدل أسرع من العيار النارى ٠

أوربا • وكانت الطائرتان تحلقان بما يعادل ثلاثة أمثال سرعة الصوت ، وعلى ارتفاع ٢٥ كيلو مترا تقريبا ، والطائرة من هذا النوع قادرة على التقاط أدق التفاصيل لمساحة ٦٠ الاف ميل مربع فى الساعة الواحدة ، ولابد وأن اسرائيل استفادت بطريقة أو أخرى من المعلومات التى حصلت عليها تلك الطائرات •

ومع ذلك ترددت اسرائيل فى تنفيذ خطتها لأنه كانت لنا أكثر من فرقة مدرعة كاملة غربى قناة السويس وفى القطاع الأوسط منها أى عند نفس المنطقة التى اختارتها اسرائيل لعبور قواتها الى الضفة الغربية فى هذه المغامرة الكبرى الأمر الذى يعرض قوات العبور الاسرائيلية الى خطر الابادة التامة •

وفى يوم ١٠/١٤ تحركت نسبة كبيرة من القوات المصرية الى الضفة الشرقية متوغلة داخل سيناء لتطوير الهجوم المصرى وتخفيف الضغط الاسرائيلى على الجبهة السورية ، وكانت هذه الخطوة هى اشارة البدء لتنفيذ المغامرة الاسرائيلية •

فى هذه اللحظة أعطت القيادة الاسرائيلية الضوء الأخضر للجنرال شارون لكى يبدأ تحقيق حلمه وهى فى ذلك لن تخسر شيئا :

ـ فان فشل شارون ـ أو باتون الاسرائيلى ـ فقد استراحت القيادة الاسرائيلية من الحاحه وانتقاداته وخلافاته المستمرة مع القادة •

ـ وان نجح الرجل فقد ينقذ سمعة اسرائيل العسكرية وخاصة اذا ما انهارت القيادة المصرية وتصرفت بأسلوب حرب يونيو ١٩٦٧ فتنقلب عندئذ الهزيمة الاسرائيلية الى نصر ساحق وتتحول الانتصارات المصرية الباهرة الى هزيمة شنعاء •

ومن أجل أن تكتسب هذه المغامرة مقومات النجاح كان يجب أن يتحقق الآتى :

١ ـ تدمير مكونات حائط الصواريخ الشهير غربى القناة وحرمان قوات الجيشين الثانى والثالث فى سيناء من مظلة الدفاع الجوى الواقية •

٢ ـ تدمير جميع وسائل العبور للجيشين الثاني والثالث على جانبي القنـــاة ٠

٣ ـ انتشار قوات العبور الاسرائيلية من الدفرسوار الى الأدبية جنوبا لقطع خطوط امداد الجيش الثالث ، ومن الدفرسوار الى بور سعيد شمالا لقطع خطوط امداد الجيش الثاني ، وفي ذلك تحتاج اسرائيل الى اقحام عشر فرق على الأقل غرب القناة حتى تغطى هذه المواجهة الكبيرة ، وعندئذ فقط ينطبق الحصار على قواتنا شرقي القناة ويستطيع سلاح الطيران الاسرائيلي أن يتعامل مع هذه القوات بكفاءة عالية في نفس الوقت الذي يصبح فيه الطريق الى القاهرة مفتوحا امام تلك القوات الاسرائيلية غربي القناة ٠

وبالنسبة لهذه النقطة الأخيرة كان هناك احتمالين :

١ ـ اما أن تكون القيــادة المصرية قد وقعت في نفس الخطأ الذي وقعت فيه القيادة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية (عندما لم تحتفظ بقوة احتياطية وراء خط ماجينو) وعندئذ يتحقق لهذه المغامرة الاسرائيلية أقصى درجات النجاح ٠

٢ ـ أو أن تكون القيادة المصرية ما زال في جعبتها قوات احتياطية تحتفظ بها في الخلف فيصبح لزاما على القوات الاسرائيلية أن تخوض معها معركة فاصلة حتى يتحقق النجاح الكامل لهذه المغامرة الاسرائيلية ٠

وفي الساعة الثالثة يوم ١٥ أكتوبر بدأ « باتون الاسرائيلي » يتحرك لتحقيق الحلم الكبير . وقد أنطبعت الملامح الرئيسية لشخصيته على هذه العملية منذ بدايتها حتى النهاية . لقد ولد أريل شارون في فلسطين عام ١٩٣٠ ولذلك فهو من جيل « السابرا » الذي خرج الى الحياة فوجد نفسه فوق أرض فلسطين ثم قيل له بعد ذلك انها وطنه ، وان العرب يريدون اغتصاب هذا الوطن منه ، وفي سن الخامسة أهداه أبوه « خنجرا » وهو هدية غريبة لطفل في سنه ولكنه تجسيد للقلق الذي كانوا يعيشون فيه والغدر والعدوان الذي كانوا يبيتون له ٠

بهذه السيكولوجية الغريبة نشأ شارون ، وقبل حرب ٤٨ خدم فى شرطة المستعمرات وانضم الى « الهاجاناه » وهو من تلاميذ لورد وينجت الضابط البريطانى الصهيونى الذى صاغ وطور الفكر العسكرى الصهيونى خلال فترة الانتداب ، وفى حرب ٤٨ اشترك شارون فى الهجوم على سوريا ولبنان ، وفى نهاية الحرب اشترك فى الهجوم على « الفالوجا » واستمر شارون يدخل المعارك ضد « المعتدين » العرب الذين يريدون اغتصاب وطنه الذى ولد فيه .

وفى عام ١٩٥٢ تقدم شارون باقتراح لانشاء وحـــدة خاصة من الكوماندوز يختار رجالها من المجرمين المسجونين فى اسرائيل ، وكان أن خرجت الى الوجود الوحدة ١٠١ التى أدمجها موشى ديان عام ١٩٥٣ مع كتيبة مظلات تحت قيادة شارون وقامت بسلسلة من الغارات الانتقامية ضد الصبيحة وخان يونس والكونتلا وغزة وكانت أولى غارات هذه الوحدة على قرية « قبيه » التى قامت الوحدة « ١٠١ » بنسفها بمن فيها فدمرت ٤١ منزلا ، وقتلت ٦٩ شخصا نصفهم من النســاء والأطفال ولم ينس شارون ورجاله أن يقتلوا أيضا المواشى الموجودة فى هذه القرية ... وكان ان سموه « المنتقم » .

فى مواجهة المجهول

وفى حرب ١٩٥٦ تولى « المنتقم » قيادة اللواء ٢٠٢ مظلات وكانت مهمته مهاجمة المحور الجنوبى من الكونتلا والتقدم بأقصى سرعة للاتصال مع كتيبــة المظليين الاسرائيليين الذين تم اسقاطهم عند ممر متلا ، وفى عمليات ١٩٦٧ قاد شـــارون مجموعة العمليات الجنوبية التى هاجمت أبو عجيلة ثم القسيمة ثم دخل حتى وصل الى ممر متلا وهناك اكتسب لقبا جديدا : « الجنرال الدموى » ، وبعد هذه الحرب تولى شارون رئاسة هيئة التدريب ثم خرج الى التقاعد فى أغسطس ١٩٦٨ للدراســـة فى الخارج ، وفى ديسمبر ١٩٦٩ أعيد للخدمة اثناء معارك الاستنزاف وتولى قيادة الجبهة الجنوبية (سيناء) لمواجهة التصاعد العســكرى المصرى

على هذه الجبهة ، وظل في هذا المنصب حتى يوليو ١٩٧٣ فطلب احالته الى التقاعد بعد أن شعر أن القيادة الاسرائيلية ستتخطاه في الترقية الى منصب رئيس الأركان ٠

وعندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ عاد شارون ليعمل على نفس الجبهة التي كان يقودها لمدة أربع سنوات ، ولا شك أن همه الأول كان الحط من كفاءة القيادة العسكرية الاسرائيلية التي أرادت تخطيه في الترقية الى منصب رئيس الأركان (ولعل هــذا هو السبب وراء مهاجمته المستمرة للجنرال دافيد العازر الذي تولى هذا المنصب) وأراد الرجل أن « ينتقم » لكبريائه ويتحدى كل الوقائع التي كانت واضحة أمامه ولقد كان التحدي من الصفات الأساسية لهذا الجنرال الاسرائيلي ويشــهد على ذلك بيت الشعر العبري الذي اختار منذ زمن أن يضعه فوق مقر قيادته ، يقول هذا البيت :

« في مواجهة المجهول وفي مواجهة العدو ستمتد حدودنا من بحر الى بحر ومن جبل الى جبل » ٠

وفي مواجهة « المجهــول » الذي أدى اليه انتصــار المصريين منذ اللحظات الأولى من القتال ، أراد شارون أن يمد الحدود فيما وراء قنــاة السويس وعند سلسلة « جبال » شيراويت وعويبد وجنيفة وفايد ، وكان ان بدأ تحرك قوات شارون بعيدا كل البعد عن القواعد التقليدية لفنون الحرب ، فكانت لواءات شارون تتقــدم تارة غربا ، ثم جنوبا ، وحتى شرقا ، في محاولات لم يكن أحد ليفهم منها شيئا ٠ وكانت القوات المصرية تطارد هذه القوات شرقي القناة ، وفي لحظة معينة تبين الهدف الحقيقي من هذه الفوضى الميكانيكية ، التي تقوم بها قوات شارون وأدركت القيادة المصرية أنهم يريدون بناء رأس جسر شرقي القنــــاة في مواجهة منطقة الدفرسوار ٠

عندئذ كان شارون ــ حسب التصريحات التي أدلى بهــا للصحافة الأجنبية ــ قد عبر فعلا قناة السويس ومعه حــــوالي ٢٠٠ من المظليين

الاسرائيليين ، ويحكي لنا هؤلاء الرجال كمية النيران الهائلة التي انصبت فوق رءوسهم من مدفعية الميدان المصرية حتى أنهم يئسوا تماما من بناء أية جسور تستخدمها باقي القوة الاسرائيلية في العبور من شرق القناة الى غربها .

وفي هذه اللحظات كان أي قائد سوى ليدرك فورا فشل المحاولة ويحاول الاتصال برجاله شرقي القناة يقودهم في هذه اللحظات الفاصلة التي يحاولون خلالها بناء رأس الجسر ، وبعد أن ينجح في ذلك يبدأ في مباشرة عملية العبور .

ولكن « جنرال الثغرة » لم يكن كأي جنرال آخـــر بسبب الملامح الغريبة التي تتسم بها شخصيته ، وبدلا من أن يعود الى رجاله في الشرق ابتسم للرجال الـ ٢٠٠ الذين كانوا معه بسخرية الرجل الذي فقد كل شيء ، وقال لهم « على أي حال فان معكم الآن سكرتارية « ليكود » (كتلة المعارضة في البرلمان الاسرائيلي ») .

وتحول هو ورجاله الى مجموعة من رجال العصـابات يختبئون في المزارع الكثيفة المحيطة بالمنطقة طوال النهار ، ثم يخرجون بالليل لينقضوا على أي هدف سهل ، وكانوا في منتهى الحذر لا يظهرون أنفسهم الا اذا كانوا متفوقين ويختفون فورا اذا ما وجدوا أنفسهم أقل عددا وعتادا ، وظلوا لعدة أيام معزولين عن قواتهم في الشرق ، ومن هنا خرج بيان القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية يعلن عن « تسلل ٩ دبابات للعدو تم تدمير ٥ دبابات منها وجاري مطاردة الباقي » .

وبعد ذلك نجح شـارون ورجاله في مهاجمة عـــدد من بطاريات صواريخ سام أرض ـ جو في المنطقة (أقل من عدد أصابع اليد الواحدة) وكانوا يوجهون نيرانهم من بعيد الى هوائيات أجهزة الرادار المستخدمة في توجيه هذه الصواريخ ، ورغم بساطة هذه الاصابات الا أنها جعلت تلك البطاريات غير صالحة مؤقتة للعمليات ، ومن ثم ظهرت الثغرة أول ما ظهرت في السماء على شكل فجوة صغيرة عارية من نيران عناصر الدفاع الجوي المصري ، ولأول مرة منذ بدء حرب ٦ أكتوبر وجد سلاح الطيران الاسرائيلي

منطقة في جبهتنا يستطيع أن يعمل فيها بحرية محدودة ، وعلى الفور استغل الطيران الاسرائيلي هذه الفرصة الذهبية وركز هجماته على رقعة الأرض الواقعة تحت هذه الفجوة في السماء ، وبعد قتال عنيف مرير نجحت قوات شارون في اقامة رأس جسر واحد شرقي القناة تقدمت منه الى منطقة الدفرسوار .

وكانت قاذفات القنابل المصرية الثقيلة من طراز « تي - يو - ١٦ » قد خرجت في الساعة الواحدة والنصف يوم ١٩ أكتوبر وأحالت منطقة « الجناين » التي يختفي فيها المتسللون الاسرائيليون بقيادة شارون الى قطعة من الجحيم ، وعلى الفور تحركت وحدات من قوات الصاعقة لتفتيش كل شجرة وحفرة وثنية أرضية في المنطقة بحثا عن العدو المختفي ، وعندما بدأت معالم المغامرة الاسرائيلية تتضح أمام القيادة العامة كان ان خرجت مئات القاذفات والمقاتلات والقاذفات المقاتلة ، تصب نيرانها فوق قوات العدو على جانبي القناة والمعبر الوحيد الذين نجحوا في اقامته عبر هذا الممر المائي ، وعندما وصلت القوات الاسرائيلية الى غرب القناة ، وصلت الأمور الى المرحلة الفاصلة :

اندفاع أم ارتداد

هل تملك القيادة المصرية احتياطيات كافية لدفعها الى منطقة الثغرة؟ أم ان الطريق الآن أصبح مفتوحا أمام القوات الاسرائيلية لتتوجه الى أي مكان ؟

— هل تتماسك القيادة المصرية وتتعامل بنجاح مع قوات شارون في نفس الوقت الذي تحافظ فيه على المكاسب التي حققتها شرق القناة ؟ أم أنها ستنهار وتضيع ما حققته في الشرق وتخسر ما كانت تقف عليه في الغرب قبل نشوب القتال ؟

كان الاسرائيليون وقتذاك قد قاموا بكل ما يستطيعون القيام به وانتظروا رد الفعل من جانبنا ليكون :

ـ أما استمرارا لأسلوب حرب أكتوبر فيتأكد بذلك انتصارنا ٠

ـ وأما عودة لأسلوب يونيو ١٩٦٧ فنكون قد «رقصنا على أنغامهم» ، وخسرنا كل شيء ، وسارت الأمور كالآتي :

ـ تبين أن القيادة المصرية تحتفظ بقوات احتياطية كبيرة في الخلف ودفعتها فورا لمواجهة العدو الاسرائيلي غربي القنـــاة ، وكان في مقدمة هذه القوات وحدات من الصاعقة لما تمتاز به هذه القوات من خفة حركة وتدريب عال ، وذلك بالاضافة الى هجمات جوية مركزة من سلاح الطيران المصري الذي كان ما زال كاملا تقريبا حتى ذلك الوقت ٠

ـ تماسكت القيادة المصرية وظلت تتعامل بنجاح مع هـــذا الموقف الطارىء وانعكس هذا في تماسك القوات المصرية شرقي القناة التي بقيت هناك تحصن في مواقعها وتوزع وحداتها بأسلوب أكثر ملاءمة طبقـــا لمتغيرات الموقف القتالي ٠

ودار القتال بضراوة وعنف لم تشهدها حرب من قبل واستمر بهذا المعدل حتى وقف اطلاق النيران في يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، وعندما توقف اطلاق النيران كانت قوة شارون تتمركز في منطقة مساحتها ٧٠ كيلو متر مربع تقريبا (٧ في ١٠ كيلو متر كما ذكر الرئيس السادات) ثم استغلت القوات الاسرائيلية هذا القرار وانتشرت بعد ذلك لتحتل نقطا حاكمة من الدفرسوار الى الأدبية جنوبا ٠

وحاولت القـــوات الاسرائيلية أن تحتل الاسماعيلية بعـــد قرار ٢٢ أكتوبر وفشلت وكررت المحاولة في الجنوب لتحتل مدينة السويس وفشلت أيضا ، واكتفت بالسيطرة على الطرق والمواقع الحاكمة في هذه المنطقة بقوات لا تتناسب أبدا مع مساحة الأراضي الممتدة من الدفرسوار الى الأدبية ، وتشهد الأحداث أن كل هذه المحاولات وقعت بعد تنفيذ قرار وقف اطلاق النيران فقد كان الاسرائيليون في أشد الحاجة لنصر ينقذون به « ماء وجههم » وسمعة العسكرية الاسرائيلية التي طنطنوا لها أكثر مما ينبغي منذ ١٩٦٧ حتى الآن ٠

وفي الوقت الذى كانت فيه قوة شارون تتعرض لمقاومة هائلة من جانب قواتنا غربي قناة السويس وما زالت محصورة في هـذه الرقعة المحدودة من الأرض (٧٠ كيلو متر مربع) كانت جـولدا مائير تدلى بتصريحات غامضة تقول فيها « ان لنا قوات كبيرة نسبيا غربى قنـاة السويس » هذا فى الوقت الذى تقل فيه « زيف تشيف » المراسـل العسكرى لجريدة هاآرتس الاسرائيلية تعبيرا صادقا عن الموقف جاء على لسان قائد القوة الاسرائيلية غربي القنـاة في مكالمة مع الجنرال دافيد العازر ـ رئيس أركان القوات المسلحة الاسرائيلية ـ قال فيـه بالحرف الواحد : « انها حرب مروعة .. حرب رهيبة ، لقد كانت حرب الأيام الستة مجرد معركة بالمقارنة بما أراه اليوم ، أنني لم أشاهد طوال حياتي شيئا كهذا ، لقد قضيت في الجيش ١٥ عاما ولكنها اول مرة أرى فيهـا حربا حقيقية » .

الحملة القذرة

وقبل قرار وقف اطلاق النيران ، وعندما تبينت القيادة الاسرائيلية أن مغامرة الثغرة لم تحدث على الجانب المصرى التأثير النفسى المطلوب لدفع القيادة والقوات المصرية الى حالة الانهيار والتخبط ، عندما تشعر أن العدو الاسرائيلي وصل الى خطوطها الخلفية ـ عندئذ شن جهاز الاعلام الاسرائيلي بالتعاون مع بعض المراسلين ووكالات الأنباء الأجنبية حملة قذرة أرادوا بها أن يحققوا وهما ما لم يستطيعوا تحقيقه ماديا وعسكريا ، وتركزت الحملة الاعلامية والحرب النفسية على الجيش الثالث بالذات ، فخرجت احدى الوكالات الأجنبية تعلن من تل أبيب « لقد صمتت المدافع وبدأ الآلاف من جنود الجيش الثالث يستسلمون للاسرائيليين » وخرجت وكالة أنباء أخرى تقول : علق الجنود الاسرائيليون المتمركزون عند ممر متلا لافتـات على دباباتهم ومدرعاتهم مكتوب عليهـا « الى القـاهرة » و « شارون ملكا » .

وركزوا بضراوة على أن الجيش الثالث نفدت منه الميـاه والذخائر والأغذية ، وذلك حتى قبل أن يتسللوا من الدفرسوار الى طريق السويس .

والأدبية جنوبا بعد سريان وقف اطلاق النار ، ثم أعلنوا أن السويس سقطت فى أيديهم ، ثم كان أن التزم الجانبان المصرى والاسرائيلى بوقف اطلاق النيران وبدأوا بعد ذلك يعيدون تصحيح بلاغاتهم شيئا فشيئا ، كانوا قد ملأوا العالم ضجيجا على أنهم حصلوا على صاروخ « سام ـ ٦ » سليما ونشروا صورة له فى احدى المجلات الأمريكية ، وبعد الحرب أعلنوا أنهم لم يحصلوا على هذا الصاروخ ، وكانت الصورة ملفقة . ثم اعترفوا بعد ذلك بأن « عيون موسى » فى أيدى الجيش الثالث وأنه يحصل على مياه الشرب بوفرة ، وتلوا ذلك باعتراف بأنهم لم يدخلوا السويس ·

وهنا يجدر بنا أن نتناول بالتفصيل معركة السويس : لأهميتها ، وللجدل الكثير الذى ثار حولها ، ولأنها كانت من أواخر المعارك فى حرب أكتوبر « فيما سمى بالمرحلة الخامسة من الحرب » ، وبالتالى فهى تعكس دلائل ومعان كثيرة ·

قتال ما قبل النهاية

لقد كانت آخر محاولة من جانب القوات الاسرائيلية انقاذ لسمعتها كقوات عسكرية ترى نفسها من الطراز الأول ، واعتبرت نفسها نموذجا للعالم أجمع : منذ الساعة التاسعة صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ حتى الساعة الثانية من ظهر السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وكانت عند المرحلة الخامسة من حرب أكتوبر تغطى الفترة ما بين الساعة السادسة والدقيقة ٥٢ من مساء يوم ٢٢ أكتوبر ـ لحظة وقف اطلاق النار ـ والساعة العاشرة من صباح يوم ٢٩ أكتوبر ·· لحظة وصول قوات الطوارئ الدولية الى مواقعها بين القوات المصرية والاسرائيلية خارج مدينة السويس ·

نوع من القتال يسميه العسكريون « قتال ما قبل النهاية » ، وفى هذا النوع من قتال « ما قبل النهاية » فان الطرف المهزوم يلقى فى العادة كل ثقله فى آخر محاولة لانقاذ ماء وجهه وتحقيق أية مكاسب ·· وهذا ما فعلته قوات اسرائيل ، أما الطرف المنتصر فان رجاله فى العادة يحجمون

عن القتال بعض الشيء ابقـاء على أنفسهم ، وقد لاح النصر والسـلام في متناول أيديهم .. ولكن رجالنا وبصفة خاصة رجال الفرقة ١٩ مشاه المصرية «احدى الفرقتين المصريتين شرقي القناة في قطاع الجيش الثالث» حطموا هذه القاعدة ، التي سادت جميع تجارب القتال التي شهدها العالم، وفعلوا العكس تماما عندما ألقوا بأنفسهم تطوعا في معمعة القتال ، وبعد أن حققوا مهامهم القتالية شرق القناة بمهارة .

قال لنا اللواء يوسف عفيفي الذي قاد الفرقة ١٩ مشاة أثناء حرب أكتوبر :

ان حقيقة ملحمة السويس أروع بكثير مما قيل أو تردد من قبـل لأنه بصمود المدينة وبسالة الرجـال تداعت استراتيجية شارون أكثر الجنرالات الاسرائيلية عجرفة ودموية وهو الذي قال قبيل الحرب بأسابيع أن قوات اسرائيل أقوى من قوة أوربا مجتمعة وهي تستطيع أن تضرب وبغير عقبة كل المدن العربية من الرباط الى الخرطوم الى الرياض .

لقد حاول العدو الاستيلاء على مدينة الاسماعيلية فتصدت له قـوات الجيش الثاني الميداني. ووحدات الصاعقة وقوات الابرار الجوي ومنعته من أن يخطو خطوة واحدة داخل المدينة ، عندئذ قررت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الاستيلاء على مدينة السويس بأية وسيلة كورقة رابحة تساوم بها بعد قرار وقف اطلاق النار الذي كان قد صدر بالفعـل ، بجانب استغلال هذه الخطوة دعائيا خاصة وأن مدينة السويس من الموانى ذائعة الصيت على الصعيد العالمي ، وسميت باسمها القناة والمعركة .

ولأن هذه العملية كانت ستتم بعد قرار وقف اطلاق النار فان العدو أعلن أنه استولى فعلا على مدينة السـويس وتناولت الاذاعات ووكالات الأنباء العالمية هذا النبأ الخطير ، هذا في الوقت الذي كانت فيه قوات الجيش الثالث شرقي القناة متماسكة تماما وتسيطر على كل شبر من المنطقة .

وهنـا التساؤل :

لماذا لم تعلن اسرائيل عن سقوط مدينة العريش في يونيو ١٩٦٧ الا بعد دخول قواتها بيومين في الوقت الذى أعلنت كذبا سقوط مدينة السويس قبل أن تقترب اليها ؟ !!

هذا ـ ببساطة ـ لا يعنى سوى انهزامها المسبق فى الثغرة غربى القناة فأخذت تركز على الحرب النفسية أكثر من الحرب الحقيقية أما فى العريش فقد أتاحت لها الظروف المحيطة نصرا عسكريا مؤقتا فلم تكن فى حاجة الى استخدام أسلوب الحرب النفسية ·

ورغم اعتناق اسرائيل حرب البليتزكريج « الاندفاع السريع بالدبابات والقيام بعمليات التطويق » الا أن تلك العقيدة وهذا الأسلوب قد تحطم أمام صمود المقاتل المصرى ·· وليس أدل على ذلك أكثر من نجاح قوات الجيش الثالث بقيادة الجيش فى صد وتدمير قوات الثغرة الاسرائيلية فى محاولتها المتكررة للانتشار صوب مؤخرة الجيش غربى القناة وردها صوب الشمال عدة مرات ·

لقد حدث فى هذه الأثناء خلال تقدم العدو جنوبا من منطقة الدفرسوار فى اتجاه السويس ، مستغلا التزامنا بقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ الخاص بوقف اطلاق النار ـ أن نجح فى تدمير بعض قواعد الصواريخ المضادة للطائرات الامر الذى أحدث ثغرة فى نظام الدفاع الجوى عن قوات الجيش الثالث شرقى القناة ـ كما ذكرنا من قبل ـ فاستغل العدو هذا الموقف الى اقصى حد وكثف من غاراته الجوية على القوات شرقى القناة بتركيز وعنف لم يحدث من قبل ·

كانت الفرقة ١٩ تؤمن مساحة كبيرة من رأس الكوبرى الذى أقامته قوات الجيش الثالث شرقى القناة ، وقد تم بأوامر من قيادة الجيش الثالث سحب بعض الوحدات الضاربة المدعمة لها للاشتراك فى القتال غربى القناة ومع ذلك ·· ظلت الفرقة تؤدى مهامها بنجاح فى سيناء .
وعندما شعر رجالها أن العدو يهدف الى احتلال مدينة السويس التى عاشوا فيها ودافعوا عنها سنوات طويلة قبل حرب أكتوبر ، كان القرار : تقدم الرجال تطوعا الى قائد الفرقة يبدون رغبة ملحة فى الدفاع عن هذه

المدينة التي تعنى الكثير بالنسبة لهم . رغم أنها خارج نطــاق مهمتهم القتالية .

القائد والرجــال

واستجاب القائد لرغبات رجاله وقام باعادة توزيع وحداته استعدادا لملاقاة العدو في الشرق والغرب معا. وقامت بعض وحداته باحتلال الساتر الترابي على ضفتي القناة وأسلحتهم موجهة للعدو المتوجه نحو السويس. كما تم تلغيم الفتحات الشاطئية في الساتر الترابي شرقي القناة ودفعت مجموعة استطلاع ليلة ٢٢ ـ ٢٣ أكتوبر الى منطقة معسكر « حبيب الله » على الضفة الغربية للقناة لابلاغ الفرقة بنشاط العدو في هذه المنطقة .

ومن يوم ٢٢ أكتوبر تم توجيه بعض مدفعيات الفرقة لتغطية قطاعات معينة غربي القناة ، كذلك دفع مركز ملاحظة للمدفعية على الساتر الترابي غرب القناة لادارة نيران المدافع التي خصصت لتغطية هذه القطاعات . وبالفعل اشتبكت تلك المدافع يوم ٢٣ أكتوبر ولمدة ثلاث ساعات ونصف نفذت خلالها خمس مهام نيرانية « منها ٢ حشد نيران و ٣ مهام نيرانية بالضرب على قطاعات متفرقة » فمنعت بذلك دبابات العدو من اقتحــام مركز القيادة المتقدم للجيش الثالث غربي القناة والذي يبعد عن مواقع هذه المدافع الموجودة شرقي القناة بحوالي ٢٠ كم .

وفي الساعة العاشرة من صباح نفس اليوم تم تحريك سرية صواريخ موجهة مضادة للدبابات الى غرب القناة عابرة فوق ناقلة برمائية وتحت وابل كثيف من القصف الجوي والأرضي للعدو ، وفي الســاعة الثانية والنصف من ظهر هذا اليوم احتلت تلك السرية « خط نيران » ، على بعد ٨ كم شمال مدينة السويس لملاقاة دبابات العدو المتجهة الى الســويس على طريق المعاهدة شرقي مطار الشلوفة .

وفي الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر يوم ٢٣ أكتوبر تقدم لواء مدرع اسرائيلي (١١٠ دبابات) الى الكيلو ١٠٩ « على طريق السويس وقام العدو بدفع كتيبة دبابات (٥٠ دبابة) وسرية مشاة ميكانيكية (٩ عربات

جنزير) فى اتجاه المدينة ، وعند وصولها الى منطقة المثلث شمالى المدينة كانت تنتظرها قذفة نيران قوية مفاجئة من مدفعية الفرقة كبدتها خسائر كبيرة بلغت ثماني دبابات ، وتشتت الدبابات الباقية شمالا وغربا .

وفي نفس الوقت كانت هناك ١٠ دبابات للعدو تعمل كمفرزة جانبية لتأمين اللواء المدرع الاسرائيلي على طريق المعاهدة ، وعندما بدأت في مهاجمة احدى قواعد الصواريخ المضادة للطائرات شرقي مطار الشلوفة مستخدمة فى ذلك الذخيرة شديدة الانفجار والرشاشات نصف بوصة ، اشتبكت سرية الصواريخ المضادة للدبابات مع تلك الدبابات الاسرائيلية وأمكن على الفور تدمير أربع منها وارتد الباقي شمالا مبتعدا عن قاعدة الصواريخ المضادة للطائرات .

وفى الساعة ٨ والدقيقة ٣٠ من صباح ٢٤ أكتوبر تقدم العدو مرة أخرى بعشر دبابات جنوبى المنطقة نفسها على طريق المعاهدة وشمال قاعدة الصواريخ ، ولكنه خصص ١٥ دبابة أخرى للتقدم من اتجاه الغرب الى الشرق فى اتجاه الطريق الأسفلت ومعسكر الشلوفة ، وتدخلت مرة أخرى سرية الصواريخ المضادة للدبابات ، التى كان قد تعطل أحد قواذفها ، وأمكن تدمير تسع دبابات للعدو على محورين ، فاضطروا الى الارتداد شمالا مرة أخرى .

المدينة باسله

ولأن عربة ذخيرة السرية المضادة للدبابات قد دمرت ، فقد صدرت اليها أوامر قائد الفرقة لاسلكيا بالتوجه الى مدينة السويس والقتال بالقواذف « آر . بى . جى » التى معها حتى يعاد امدادها بالصواريخ اللازمة ، وبالفعل وصلت السرية الى السويس الساعة ١٠ والدقيقة ٣٠ صباحا من خلال كفر أحمد عبده ، واخفوا قواذف الصواريخ بين مبانى المدينة ثم تفرقوا على هيئة مجموعات اقتناص دبابات عند منطقة الأربعين والمثلث ، وعند توجه احدى المجموعات الى المنطقة الأخيرة تبين أن العدو نجح فى التسلل منها بدبابتين وأربع عربات مجنزرة ، فقام رجال هذه

المجموعة باطلاق القذيفة الأولى التي سرعان ما تبعتها نيران كثيفة من بعض عناصر القوات المسلحة وقوات الدفاع الشعبي والشرطة المدنية ورجال منظمة سيناء ، فتحولت المنطقة الى كتلة من النيران أسفرت عن تدمير مركبات العدو الست بمن فيها .

وعاود العدو هجومه على المدينة بسريتي دبابات (٢٦ دبابة) وسرية مشاه ميكانيكي (٩ عربات جنزير) وذلك من ثلاثة اتجاهات :

- الجناين في اتجاه الهويس .
- طريق مصر السويس في اتجاه الأربعين .
- طريق الزيتيات في اتجاه بور توفيق .

وتمكنت المدينة الباسلة من صد هذا الهجوم رغم تعرضها للقصف الجوى المركز لمدة ثلاث ساعات كاملة من الساعة الثامنة الى الساعة الحادية عشرة ، ولما كانت مجموعة مدفعية الفرقة ١٩ قد قامت بالقصف المستمر على العدو في هذه الأثناء لمنع تقدمه جنوبا فقد نقل العدو هجماته الجوية الى قوات الفرقة المتمركزة في منطقة رأس الكوبرى شرق القناة بعنف وضراوة من الساعة الحادية عشرة الى الخامسة مساء وبتركيز خاص على منطقة الشئون الادارية والمعابر ومرابض المدفعية المضادة للطائرات ومدفعية الميدان . أثناء ذلك دمرت بعض الكبارى المقامة على قناة السويس خلف الفرقة .. ولكن سرعان ما استعيض عنها بالمعديات والناقلات البرمائية .

وفي نفس اليوم ضغط العدو بدباباته وركز ضرباته الجوية على القوات المدافعة في منطقة الترعة الحلوة من اتجاه طريق المعاهدة وطريق القناة فاضطرت الى تعديل أوضاعها بعد معركة مريرة الى منطقة حوض الدرس الواقعة بين قناة السويس ومدينة السويس شرقا والتي كانت تتمسك بهـا الفرقة لحماية ظهرها فكانت المنفذ الذي يصل قوات رأس كوبرى الجيش الثالث الميداني بمدينة السويس .

وفي المساء وصلت اشارة من ضابط ملاحظة المدفعية الذي كان يوجه نيران مدفعية الفرقة غربا تفيد بتماسك المدينة وتدمير قوات العدو التي

تسللت اليها والتى بلغت ١٩ دبابة ، ٩ عربات مجنزرة ، ٤ لورى ومقتل ٣٩ جنديا ترك العدو جثثهم داخل المدينة وعلى مشارفها .

ولقد كان طبيعيا بعد ذلك كله أن يستخدم العدو كافة الأساليب النفسية للضغط على قوات الجيش الثالث شرقي القناة فقام بالقاء منشورات موقعة من الجنرال جونين قائد الجبهه الجنوبية يطالبها فيها بالاستسلام ، وانها قد أبلت بلاء حسنا ولا فائدة فى استمرار القتال ..

وكان طبيعيا كذلك أن يتلقاها الجنـــود بازدراء وأن يحرقوها على الفور .

وعاد العدو الى نفس المحاولة يوم ٢٥ اكتوبر ولكن بصورة أخرى .

اتصل الاسرائيليون تليفونيا من الزيتات بمحافظ السويس وأبلغوه أنهم يعلمون بعدم وجود مرافق صالحة بالمدينة وعدم وجود مياه أو مؤن غذائية ، وأن عليه اعلان تسليم المدينة والا محوها خلال نصف ســـاعة بالطيران والأسلحة الأخرى ..

رفض الانذار كل الرابضين فى المدينة .

وأثار حماس المواطنين صوت الحاج حافظ امام مسجد الشهداء الذى انطلق من خلال مكبر الصوت بالمسجد .. وأثارهم أكثر اشتراكه مـع رفاقه فى نقل الذخائر .

ولكن بفضل الله ، وبنيران مدفعية الفرقة ١٩ من الشرق وكمائن اقتناص الدبابات التى وزعت فى أفضل الأمكنة انتظارا للعـدو الزاحف وتصميم وعزيمة الرجال تحولت المدينة الى قلعة حصينة ترد العدو وتهزمه وتحطم الغرور الاسرائيلى .

فى الساعة الواحدة ظهر ذلك اليوم ٢٥ أكتوبر وبعد تطور الأحداث على هذا النحو توقعت قيادة الفرقة أن العدو سيعاود هجومه مرة أخرى على مدينة السويس وبتركيز أكثر مما سبق فبزغت مرة أخرى بين وحدات الفرقة ١٩ ورجالها تلك الرغبة الملحة فى الدفاع عن المدينة وعدم السماح

للعدو باحتلالها مهما كلفهم ذلك من تضحية • وعندما زادت رغبات التطوع بين رجال الفرقة ووصلت اعدادهم الى المئات قام قائد الفرقة باختيار بعض مجموعات وكان من بينهم من هم اصلا من أبناء السويس •

وقد تم تشكيل هذه القوة على صورة أطقم اقتناص دبابات ، وتم دفعهم بواسطة اللنشات الى غرب القناة وكانت مهمتهم الأساسية أن يرابضوا عند مداخل المدينة ويتعاملوا مع دبابات العدو التى تحاول الاقتراب من أى اتجاه وبنفس هذا المعنى أرسل قائد الفرقة خطابا الى محافظ السويس يطمئنه فيه باجراءات حماية مداخل المدينة والتقاطعات والمراكز الهامة فى المدينة •

وعندما تسللت بعض دبابات العدو عن طريق الزيتيات بهدف محاولة حصار مبنى المحافظة توجه طاقم من مقاتلى الفرقة لملاقاتهم ونجح فى تدميرهم ، وبجانب مجموعة الصواريخ كان هناك أيضا مقاتلون آخرون يقاتلون مدرعات العدو بقواذف « آر • بى • جى » ثم كان أن تسلمت هذه المجموعة امدادها من ذخائر الصواريخ المضادة للدبابات ، وعلى الفور أخرجت القواذف والعربات التى كانت تخفيها بين شوارع المدينة وأزقتها ودخل عنصر جديد بين خطة الدفاع عن المدينة بالاضافة الى نيران مدفعية الفرقة الجاهزة للردع الفورى •

وقد أصدر قائد الفرقة ١٩ تعليماته يوم ٢٦ أكتوبر الى قائد مجموعات الدفاع عن السويس لمقابلة المحافظ وابلاغه بأن الصواريخ المضادة للدبابات أصبحت جاهزة للدفاع عن المدينة •

ولما كانت مجموعات الرجال قد وزعت فى أفضل الأمكنة وسيطرت على جميع المداخل وطرق الاقتراب الى المدينة علاوة على حماية محطة المياه والدفاع عنها لحيويتها بالنسبة للجميع فقد تم أيضا الاتصال بالمستشار العسكرى والتنسيق معه ، فطلب بدفع مجموعة اقتناص دبابات الى مدخل حى اليهودية بالمدينة وبذلك تمت السيطرة على جميع مداخل السويس •

وخلال يومى ٢٦ ، ٢٧ أكتوبر استمر العدو فى محاولاته المتكررة

لدخول المدينة وحوض الدرس بهدف عزل رأس كوبرى الجيش الثالث فى الشرق عن مدينة السويس وأيضا لاحتلال أجزاء من المدينة قبل وصول قوات الطوارىء الدولية ولكن تصدت له صواريخ السرية المضادة للدبابات ودمرت له أربع دبابات فى منطقة المثلث شمال السويس كما تصدت له مجموعة قنص الدبابات بحوض الدرس ودمرت له ثلاث دبابات أخرى وعربة نصف جنزير ، وقبل ذلك تم تدمير دبابات العدو على مسافات أبعد بكثير من هذه المداخل • مما دعا العدو الى عدم التفكير مطلقا فى معاودة الهجوم من هذا الاتجاه •

وفى يوم ٢٩ أكتوبر وصلت قوات الطوارىء الدولية لتتخذ اماكنها • وانتهت المرحلة الخامسة من حرب أكتوبر •

وانتهى « قتال ما قبل النهاية » الفريد من نوعه •• بتدمير ٤٣ دبابة للعدو داخل وخارج السويس خلاف العربات المدرعة ، كما تبين فيما بعد ، من الكشوف التى قدمتها اسرائيل لهيئة الصليب الأحمر ، بشأن ضحاياها التى لم يمكن العثور على جثثهم ، ان السويس فتكت بقادة الهجوم الاسرائيلى وعلى رأسهم الرائد « يورى اريل » والنقباء « موسى ادنو ، ويستحاق صوشمتن ، واسرائيل مندلسون ، وآمون زهار ، وكارمن ادلر ، وذلك من بين جثث ٦٨ ضابطا و ٢٣ طيارا ، ٣٧٣ جنديا ومدنيا واحدا يمثلون مجموعة القتلى الذين لم تعثر اسرائيل عليهم خلال عمليات القتال المختلفة غربى القناة » •

وحتى شارون نفسه اعترف بعد الاتفاق على انسحاب الاسرائيليين من غرب القناة بأن « آلافا قد لاقوا حتفهم فى هذه العملية » وفى تصريح آخر قال « ان مدى الصواريخ المصرية امتد بعد حرب أكتوبر وأصبح يغطى منطقة الممرات » • وعندما وصلت قوات الطوارىء الدولية الى جبهة القناة وجدت نفسها أمام موقف لم تشهده من قبل فقد كانت قواتهم غرب القناة مبعثرة هنا وهناك بين قواتنا ولم يكن ليستطيع أحد أن يحدد أين مواجهتنا وأين مواجهتهم •

ما هو الجيش

وفي يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٧٣ قام الفريق أول أحمد اسـماعيل بزيارة وحدات « الجيش الثالث غربي القناة » ولم يلاحظها أحد منا ، ولكن لاحظتها بالقطع القيادة الاسرائيلية فقد كانت بعض وحدات الجيش الثالث تتمركز شرقي القناة ، وهناك وحدات أخرى في منطقة السويس وحتى مسافة ٩ كيلو مترات شمال السويس وعلى الجانب الغربي منها ، وكان الاسرائيليون يقفون غربي السويس ثم يليهم بعد ذلك الجانب الأكبر من قوات الجيش الثالث الميـداني ، ويجدر بنا أن نشـير في هذا المجال الى التشكيل الذي تتكون منه الجيوش والمعمول به في العالم أجمع ، ان النواة الأولى هي الجندي وتليه بعد ذلك :

- الجماعة وتتكون من ١٠ جنود + قائد ٠
- الفصيلة وتتكون من ٣ جماعات + قيادة الفصيلة ٠
- السرية وتتكون من ٣ فصائل + قيادة السرية ٠
- الكتيبة وتتكون من ٣ سرايا + قيادة الكتيبة ٠
- اللواء ويتكون من ٣ كتائب + قيادة اللواء ٠
- الفرقة وتتكون من ٣ لواءات + قيادة الفرقة ٠
- الفيلق ويتكون من ٣ فرق + قيادة الفيلق ٠
- الجيش ويتكون من فيلقين + قيادة الجيش ٠

من يحاصر من ؟

ولقد كانت هناك حوالي فرقتين من قوات الجيش الثالث شرقي القناة وباقي الجيش في السويس ثم غربها في مواجهة من تسلل من القـوات الاسرائيلية لقطع الطريق الى المدينة ، من هنا فان المسألة لم تكن حصارا فرضته القوات الاسرائيلية على هذا الجيش ، ولكن مجرد قطع الاتصال من بعض وحداته المختلفة مستغلين في ذلك قرار وقف اطـلاق النيران

والتزاماتنا التي نحافظ عليها ـ بأكثر مما ينبغي في بعض الأحيان ـ أمام المجتمع الدولى ٠

وثمة دليل آخر لم تعلن عنه اسرائيل الا بعد فترة طويلة من الوقت وهو وجود موقع مصر في قلب منطقة التسلل ووسط الجانب الأكبر من القوات الاسرائيلية التي اشتركت في عملية الثغرة ، وذلك هـو موقع كبريت الحصين الذي مكث فيه رجالنا ١٣٤ يوما كاملة لم تستطع خلالها القوات الإسرائيلية أن تخرجهم منه أو أن تقطـع الامداد عنهم ، أو أن تقنعهم باخلاء الجرحى والمصابين منهم ، وذلك رغم الهجمات المركزة على هؤلاء الرجال بواسـطة الطيران والمدرعات والمدافع الثقيلة ، ثم كان أن اعترفت اسرائيل اخيرا بوجودهم صامدين وسط قواتهم التي اشتركت في عملية الثغرة وبدأ العالم يفكر : من كان يحاصر من ؟

أجاب على ذلك أحد الجنود الاسرائيليين الذين اشتركوا في هـذه المغامرة الكبرى ، وكان قد نشـأ وتربى في مصر ويجيد اللغة العربية باللهجة المصرية اجادة تامة وحدث أن وقع اشتباك بين رجالنا ورجالهم غربى القنـاة وجاء رجال الرقابة الدولية وأحضروا قائدى الموقعين المصرى والاسرائيلي لبحث أسباب الاشتباك ووقفه ، وجاء اليهودى المصرى مع القائد الاسرائيلي ثم خاطب المصريين قائلا : « الآن لن يستطيع المراقبون الدوليون ولا الجنـود الاسرائيليون أن يفهموا ما أقوله لكم ٠٠ ان ولاد ٠٠٠٠٠ دول عاوزين يمشوا النهارده قبل بكره وعارفين كويس انه مقضى عليهم و استمر بقاؤهم في هذه المنطقة ٠٠ والله يلعن اليوم اللى سبت فيه مصروشفت وشهم ٠٠ وأنا ارجوكم أن تتركونا في حالنا حتى نرحل » ٠

وبأسلوب آخر أكـد الجنرال اهارون ياريف هذا المعنى أثنـاء المباحثات التي اجراها مع اللواء الجمسى عند الكيلو ١٠١ ، كان رئيس الأركان المصرى يعرض شروطنا وضرورة انسحاب القوات الاسرائيلية الى خطوط ٢٢ أكتوبر وبعد حوار ومجادلة قال له ياريف بخبث : ان كلينا عسكريان وأنت تعرف أننـا لن ننسحب أبدا الى خطوط ٢٢ أكتوبر ٠٠

تنسحب الى الشرق فى سيناء ولكن ليس الى خطوط ٢٢ أكتوبر ·· واظنك تعرف السبب جيدا (والسبب طبعا هو أن بقـــاء اسرائيل فى منطقة الـ ٧٠ كيلو متر مربع عند الدفرسوار كان معناه حصر هذه القوة وابادتها اذا ما تجدد القتال ، وهو نفس السبب الذي جعل الاسرائيليين ينتشرون جنوبا بعد وقف اطلاق النيران) ·

وبالفعل كان أن انسحبت اسرائيل الى داخل سيناء ، ولكن هل كانت فكرة الثغرة طائشة ؟

بالطبع لا فان الفكرة نجحت من قبل مع خط ماجينو الفرنسى ·· ولكن الطيش كله كان فى استمرار المحاولة بعد أن اكتشفناها ، وبات من المؤكد أن مازال فى جعبتنا قوات احتياطية قادرة على القتال ، ونستطيع أن ندفعهـا الى أية منطقة تتعرض للاختراق ·· وفى العـالم كله لم يكن هناك من يقبل أن يستمر فى هذه المهمة ، بمزيد من القتـــلى والجرحى والخســـائر ، الا جنرال واحد هو : اريل شـــارون بتركيبه النفسى الغريب ····

··· وظروفه الخاصة وسط القادة الاسرائيليين ···

واهتماماته التى فاقت كل شيء بالانتخابات الجديدة التى كانت على الأبواب ·

من نتائج حرب أكتوبر

● من نتائج حرب اكتوبر

أسفرت حرب أكتوبر ١٩٧٣ عن عدة نتائج عسـكرية وسياسية واجتماعية ، أثرت على الأوضاع الراهنة فى منطقة الشرق الأوسط تأثيرا هائلا ، كذلك امتد تأثيرها الى العالم أجمع والعلاقات الدولية ، ومن المؤكد ان هذه الآثار كانت من القوة بحيث أنها ستستمر لعـدة سنوات فى المستقبل :

● انتهت الى الأبد نظرية السيادة الجوية وثبت أن عناصر الدفاع الجوى المتوافرة حاليا تستطيع ، اذا ما تم تنسيقها فى جهاز فعال متكامل يديره رجال ذوو مهارات وخبرات عالية ، أن تبطل تماما من فاعلية أحدث طائرات القتال التى يعرفها العالم ، وبالفعل أعلنت الولايات المتحدة أنها ستجرى تطوير صواريخ « سام ـ د » أرض ـ جو على ضوء عمليات أكتوبر ١٩٧٣ وكل أنواع الصواريخ أرض جو التى تملكها .

● نتيجة لهذه الفاعلية من جانب أجهزة الدفاع الجوى القادرة ، سيبرز فى المستقبل بشـكل بدأ يظهر واضـحا فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ الدور الذى ستلعبه الطائرات التى تعمل بدون طيـارين ، ويجرى حاليا تطوير هذه الطائرات بحيث تخدم جميع مجالات الحرب

الجوية من قتال جو ـ جو وقتال جو ـ أرض واستطلاع وقصف قنابل ، وذلك عملا على تخفيض نفقات الحرب الجوية أمام نسبة الخسائر العالية التى تتعرض لها القوات الجوية (من عناصر الدفاع الجوى) وخاصة فيما يتعلق بعنصر الطيارين البشريين الذين يتطلبون نفقات باهظة فى التعليم والتدريب ورفع كفاءاتهم القتالية ، تضيع كلها بمجرد اصابة طائراتهم · أضف الى ذلك أن الطائرات التى يقودها آدميون أغلى بكثير جـــدا من الطائرات التى تعمل بدون طيارين ، وذلك لأن وجـــود العنصر الآدمى يتطلب وجود أنظمة اعاشة مختلفة (أوكسيجين للتنفس وأجهزة لتكييف الضغط الجوى داخـــل الطائرة وأجهزة انقاذ من الكوارث مثـــل المقعد القاذف ، وقوارب وأطواق النجاة ، وأطعمة محفوظة ، ومراوح ، وأسلحة شخصية ، وطبنجات اشارة ، وأجهزة « بيكون » ، ولاسلكى ·· الخ) الأمر الذى تستطيع أن تستغنى عنه تماما فى حالة الطائرات التى تعمل بدون طيارين · كذلك ـ ولنفس هـــذه الأسباب فان تلك الطـــائرات الجديدة تتمتع بقدرة أكبر على المناورة نتيجة لعدم وجود طيار آدمى تتحكم فيه المخاوف وضعف الجسم البشرى عموما أمام المناورات الحـــادة ، والجاذبية الأرضية وتأثيرات الضغط الجوى ·

● ثبت أن أساليب الحرب الاليكترونية لن تجـــدى مطلقا مـــع خصمين على قدر من العلم والتكنولوجيا ، الأمر الذى سينقلها عبر بحور من الاجراءات المعقدة بأن يبدأ خصم باجراءات معينة يقابلها الخصم الآخر باجراءات مضادة ، تتبعها اجراءات مضـــادة من جانب الخصم الأول ثم اجراءات أخرى من جانب الخصم الثانى ·· الى مالا نهاية ، ومع ذلك فان وسائل الحرب الاليكترونية لها تأثير السحر اذا ما تم استخدامها مع خصم لا يتمتع بمستوى علمى أو تكنولوجى متقدم ·

● تستطيع الصـــواريخ الموجهة المضادة للطـــائرات (وهى من الأسلحة الدفاعية) أن تلعب دورا حاسما فى العمليات الهجومية بسبب مداها الذى يصل الى عشرات الكيلو مترات بعيدا عن موقعهـــا الأرضى وداخل المجال الجوى للخصم ، وقد ظهر ذلك بصورة مصغرة فى حرب

فيتنام عند المنطقة المنزوعة السلاح فكانت بطاريات الصواريخ التي يملكها الثوار تقترب من حدود هذه المنطقة ليلا وتقتنص طائرات القتال الأمريكية التي تحلق بعيدا داخل أراضي فيتنام الجنوبية ، اما خلال حرب أكتوبر فقد برزت هذه الحقيقة بصورة واضحة عندما تمكنت الصواريخ المصرية غربي القناة من صد هجمات السلاح الجوي الاسرائيلي شرق القناة وحماية قوات العبور المصرية أثناء وبعد عملية العبور ، وكان « الاهرام » أول من نشر هذه الحقيقة في مقال بتاريخ ١٩٧٣/١٠/١٢ وتبعته بعد ذلك مجلة « تايم » الأمريكية ، ثم أعلن وزير الجيش الأمريكي أن هذه العملية بالذات ستغير جذور الاستراتيجية الحديثة .

● رغم تقدم وسائل الاستطلاع والتجسس الحديثة الى حد خيالي فقد أثبتت عمليات أكتوبر أن الرد هو أهم مصادر المعلومات . وقد كان هناك جواسيس كثيرون وعلى درجة من الكفاءة ولكن نظرا لاجراءات الأمن لم يستطيعوا اكتشاف اى شيء . وقد استطاع الجانب العربي ان يخدع شبكة التجسس الهائلة التي تحيط بنا في البر والبحر والجو ومن خارج الغلاف الجوي للكرة الأرضية (عن طريق أقمار التجسس) بأن حافظ على سرية العملية واتبع خطة خداع أربكت جميع وسائل الاستطلاع والتجسس .

● بات من المؤكد أن استخدام قوات المظلات والابرار الجوي بالأساليب التي شهدتها الحرب العالمية الثانية والحروب التي تلتها ، أصبح من المخاطر الجسيمة بعد تقدم أجهزة الدفاع الجوي وتطور كفاءتها .

● أكدت الهليوكبتر بصورة نهائية كفاءتها الخيالية المتعددة في مجالات الابرار الجوي ـ امداد القوات ـ حرب المدرعات بعد تسليحها بالصواريخ ، وقد استفادت منها القوات المصرية استفادة كبيرة في ابرار قوات الصاعقة خلف خطوط العدو ، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي أول من فطن الى أهمية هذه المركبة الطائرة في عمليات القتال ، وهناك مشروع يجري تنفيذه حاليا في الولايات المتحدة ويرمي الى تشكيل فرق كاملة تسمى « تراي كاب » (اختصار ثلاثية القدرات) بحيث تستطيع

هذه الفرق القيام بالمهام الأساسية لقوات المشاة والمدرعات والمظلات فى آن واحد ، وبصورة أكفأ وأسرع بكثير مما تحققه هذه القوات بالصورة الكلاسيكية التى سادت حتى الآن ، والتى لا تقوم على استخدام الهليكوبتر استخداما أساسيا ٠

● اظهرت الدبابة عجزا شديدا أمام الصواريخ والقواذف المضادة للدبابات واستطاعت حفنة من الجنـــود المصريين المدربين تدريبا عاليـا والمسلحين بصواريخ أو قواذف مضادة للدبابات أن يدمروا عددا ضخما من المدرعات الاسرائيلية ٠ استطاع جندى واحـــد أن يدمر ٢٢ دبابة ومدرعة اسرائيلية ـ ورأينا وزير الدفاع الأمريكى جيمس شليزنجر يعلن فى مارس ١٩٧٤ أنه قد تقرر زيادة انتاج أمريكا من الدبابات « م ـ ٦٠ » الى الضعف تقريبا فى العام الحالى والعام القادم لتعويض الدبابات التى قدمتها أمريكا لاسرائيل لسد خسائرها الهائلة خلال حرب أكتوبر ٠

وفى نفس الوقت اعلن وزير الدفاع الأمريكى أنه على ضوء عمليات أكتوبر ١٩٧٣ ، قررت الولايات المتحدة انتاج ٢٣٫٤٢٥ صاروخا مضادا للدبابات فى العام الحالى ، بدلا من ١٢٫٠٠٠ (١٢ ألف) صاروخ ، كان قد تقرر انتاجها قبل هذه الحرب ، ويزيد الانتاج فى السنة المالية القادمة ليصل الى ٣٠٫٣١٩ صاروخا وذلك نظرا للفاعلية الكبيرة التى أثبتتهـــا هذه الصواريخ فى المعارك الضخمة ضد الدبابات الاسرائيلية خلال حرب أكتوبر ٠ كذلك ظهر عيب خطير فى الدبابات م ـ ٦٠ الأمريكية ، التى كانت تعتبر من أحسن الدبابات فى العالم ، فقد ظهر أن هـــذه الدبابات لا تتحمل درجات الحرارة العالية ، التى تتولد بعد الاصابة ، مما اضطر الجنود الاسرائيليين الذى يعملون على هذا النوع من الدبابات على ارتداء ملابس خاصة واقية من النيران لحماية أنفسهم ، الأمر الذى يؤثر بالقطع على كفاءة أطقم العاملين على هذا النوع من الدبابات ٠

من هذا كله فان حرب أكتوبر قضت نهائيا على الخاصية الأساسية التى أبقت على الدور الحيـــوى الذى تلعبه الدبابات فى المعركة ألا وهى « قوة الصدمة » التى تحدثها الدبابة فى نفوس المشاة ، وقدرتهـا على

اقتحام مواقعهم ، وذلك بعد أن أصبح رجل المشاة المدرب تدريبا خاصا والمسلح بقاذف صاروخي صغير أو صاروخ مضاد للدبابات يستطيع أن يقف شامخا على أرض المعركة يتحدى هذه الأطنان الهائلة من الصلب والدروع ويحيلها في لحظة الى كتلة خردة مصهورة على من فيها من افراد ٠

● أظهرت حرب أكتوبر انه نظرا لمعدلات النيران الهائلة التى تنتجها الأسلحة الحديثة وقدرتها التدميرية الكبيرة فان الدول غير المنتجة للسلاح والذخائر لا تستطيع أن تستمر فى القتال لأكثر من أسابيع قليلة ، ينفد بعدها مخزون الذخائر وتصبح فى أمس الحاجة الى استعواض سريع من الأسلحة والمعدات ، وهنا تلعب الدول الكبرى المنتجة للسلاح دورا بارزا يؤثر تأثيرا حاسما على سير القتال ، ويستلزم ذلك انشاء جسور جوية ضخمة بين الدول المنتجة للسلاح والأطراف المتنازعة ، ولا شك ان ضخامة الجسور ونوعية حمولتها لها أثر كبير على تلك الأطراف المتنازعة وتطور عمليات القتال ٠

وقد رأينا موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى يعترف صراحة بعد حرب أكتوبر ، أنه رغم الامدادات الأمريكية التى تمت على عجل فان ما كانت تملكه اسرائيل من ذخائر لأسلحتها المختلفة ، كان فى طريقه الى النفاد تماما لو استمرت الحرب ثلاثة أيام أخرى ، الأمر الذى يعطى صورة واضحة لأهمية الدور الذي تلعبه الدول المنتجة للسلاح فى تزويد عملائها بما يلزمها من معدات وأسلحة وذخائر مختلفة ان أرادت هذه الدول استمرار القتال والتأثير بايجابية على نتائجه ٠

● قضت حرب أكتوبر قضاء تاما على نظرية الردع الجسيمة التى كانت تنتهجها اسرائيل مع الدول العربية إبتداء من حرب يونيو ١٩٦٧ ٠

● تكشف خداع المقارنة الضالة التى كانت تزعمها اسرائيل بين الكم العربى والكيف الاسرائيلى من حيث التفوق العلمى والتكنولوجى والقدرة على استيعاب واستخدام الأسلحة الحديثة المعقدة وبصفة خاصة الأسلحة الاليكترونية التى ظنوا أنهم بواسطتها سيقعدوننا تماما عن أى نشاط عسكرى ٠

● انهيار نظرية الحدود الآمنة التي كانت تمثل جانبا هاما في الفكر العسكري الاسرائيلي . ولقد اثبتت قواتنا نظريا وعمليا بطلان هذه النظرية الاسرائيلية عندما اقتحمت قناة السويس واجتاحت خط بارليف بما شمله من تجهيزات وتحصينات في ساعات قليلة .

● اظهار القدر الحقيقي لكفاءة الانسان المصري كمقاتل ، بعد أن لحقت به طوال السنوات الماضية شائعات مدمرة كادت تقضي على روحه المعنوية لو لم تنشب حرب أكتوبر ويخوضها بشجاعة واقتدار أذهل العالم أجمع .

● انعكاس آثار التراث الحضاري المصري العميق على جبهتنا الداخلية التي تصرفت بأسلوب مثالي لم يتأثر اطلاقا بضغوط الحرب ومخاطرها ، وانبعثت الوحدة الوطنية في مصر بصورة كاملة متكاملة رغم كل محاولات العدو الجادة والدائبة لفك رباط هذه الوحدة واحداث صدام مدمر بين عناصرها .

● لأول مرة في التاريخ الحديث تتكاتف الدول العربية وتتضامن حول هدف واحد هو قتال اسرائيل بالسلاح والمال ، وهجرت الدول العربية « هوس الخطابة » وبيانات التأييد والعطف ، بل لوحظ خلال حرب أكتوبر أن اقل الزعماء كلاما كان أكثرهم مساهمة في القتال وعلى راسهم الملك فيصل والرئيس هواري بومدين .

● تبين للدول العربية حجمها الحقيقي في هذا العالم ، ومدى تأثير الامكانيات الاقتصادية التي تملكها على الاقتصاد العالمي وملامح الحياة العصرية ، ولقد كانت حرب أكتوبر معركة سلاح ومعركة اقتصاد ومعركة ضغط بشتى الوسائل والامكانيات المتاحة (*) ، وفي هذا الصدد برز دور البترول العربي كسلاح مؤثر ، ولو كان الأمر تطور الى عكس ما تطورت اليه الأمور لبرز دور الأرصدة العربية المكدسة في بنوك العالم

(*) أعلن معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني في تقريره السنوي الاخير ان تلك الامكانيات جعلت من العرب القوة السادسة في العالم .

الغربى كسلاح أكثر فاعلية ، وفى ذلك ساهمت جميع الدول العربية فى المعركة باجماع وفاعلية جسم من واقع التضامن العربى ونقله من حيز الوهم والسراب الى لب الواقع والحقيقة ، الأمر الذى يبشر بآمال عريضة للعالم العربى خلال حقبة ما بعد حرب أكتوبر بل خلال المستقبل كله ·

● أعادت حرب أكتوبر كثيرا من هيبة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية التى كانت سمعتها تتهاوى منذ يونيو ١٩٦٧ بايقاع سريع منتظم فى طريقها الى التلاشى تماما ·

● بعثت حرب أكتوبر أملا كبيرا بين دول العالم الثالث بأن أكدت أنه رغم سياسة الوفاق بين الدولتين العملاقتين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، فان هذه الدول مازالت قادرة على أن تسلك الطريق الذى يملكها الجانب الآخر ، وعندما أحس الجانبان بخطر الدمار تولد السلام، بل تطور الأمر بعد ذلك الى عصر الوفاق والتعاون المشترك ·

● أصبح لدى الدول العربية جيشان قويان :

ـ الجيش المصرى والجيش السورى ـ خاضا معا أحدث وأعنف حرب شهدها العالم ـ وذلك بجانب وحدات رمزية من مختلف الجيوش العربية ، وبالقطع استطاع رجال هذين الجيشين أن يتحصلا على خبرات قتالية هائلة ، لا تقدر بثمن ، ويمكن الاستفادة بها استفادة عظيمة فى انشاء قوة عسكرية عربية فى المنطقة سيكون لها أثر كبير على ميزان القوى العالمى ، ومستقبل المنطقة ، وخاصة اذا نجحت الدول العربية فى انشاء قاعدة فعالة للصناعات الحربية الحديثة ، تقلل من اعتماد العرب على الدول الأجنبية وتخرجهم من فلك التبعية للدول الكبرى فى هذا المجال الحيوى ، الذى يقوم عليه أمن ومستقبل منطقة الشرق الأوسط بأكملها ·

الخاتمة : من وَرقة أكتوبَر

● الخاتمة : من ورقة أكتوبر

هناك ايام في حياة الأمم لا تقاس بوحدات الزمن ، وانما تقدر بوزن ما تفتحه من آفاق وما تتيحه من آمال ، وما تلهمه من أفكار وما تلهبه من عزائم • وهي بطبيعتها ايام نادرة لا تعرض للأمة الواحـــدة الا مرة كل عشرات من السنين • والأمم الجـــديرة بالتقدم والازدهار هي تلك التى تعرف كيف تمسك بالفرصة التى لا تتكرر لكي تشق ما انفتح أمامها من طرق ، وتحيل بعملها ما يلوح من امل الى واقع حى ، وتجعل من مجدها صفحات مشرقة من تاريخ البشرية ولاتتركه ومضة خاطفة ليس لها من غد•

لقد أراد أعداء مصر ، اعداء التحرر والتقدم ، بعدوان ١٩٦٧ إبعاد مصر عن مسيرة التقدم ، وعزلها عن الامة العربية مستهدفين ان تنزوى على نفسها تطحنها مشكلات داخلية حقيقية او مصطنعة فتنسى ماضيها او تتنكر لرسالتها ، وهي التى تهيىء لهـا من الموقع الجغرافى والطاقات البشرية والتراث الحضارى والروابط القومية ما يؤهلها لتكون فى الطليعة بين شعوب العالم المناضلة من أجل الحرية والتقدم والرخاء •

وكانت حرب أكتوبر الخالدة هي رد شعب مصر العظيم من خلال امته العربية المجيدة وبها ، وكان ردا على مستوى مصر ، تجاوزت آثاره قضيتنا المباشرة لتغير أوضاع المنطقة كلها وتنعكس على الأوضاع العالمية ذاتها •

العالم بعد اكتوبر :

حقا ان العالم بعد اكتوبر ١٩٧٣ ، كما قلت فى مناسبة سابقة ، غير العالم قبله •

كانت اسرائيل بعد ١٩٦٧ هى القوة المتحكمة فى المنطقة ، وكان الظن السائد أن العرب لا يملكون تغيير هذا الوضع ، وكانت السياسات العالمية ترسم وفقا لهذا الفهم • ثم فوجىء العالم كله بقواتنا المسلحة •

تعبر القنـــاة ••

وتحطم خط بارليف ••

وتخوض اضخم معارك الدبابات فى التاريخ فى تلاحم كامل مـــع شقيقتها القوات المسلحة السورية وتكبد العدو أفدح الخسائر ••

والعرب تتوحد كملتهم دفاعا عن حقهم المشروع •

وكل القوى المحبة للسلام والعدل تلتف حول القضية العربية •

تغيرت الصورة رأسا على عقب ، وأصبح من المتعين على كل الأطراف أن تعيـــد النظر فى سياساتها وفقا للأوضاع الجديدة التى صنعتها دماء الشـــهداء وتضـــحيات الأبطال وما سبق ذلك وواكبه وتلاه من تخطيط عسكرى وعمل سياسى ممتاز •

ان شعبنا العظيم قد خاض تجربة الهزيمة ، وعاش سنوات المرارة والتمزق ••

وعاش أيضا تجربة صنع النصر ••

وما كان لهذا كله ان يحدث دون ان نستمد منه طاقات جبارة لبناء مستقبل سعيد •

لقد كانت سنوات الهزيمة فرصة لامتحان قاس للضمير ، ناقشـــنا فيها أنفسنا ، ووضعنا كل جوانب العمـــل الوطنى تحت مجهر النقد ،

واستبد بنا التمزق حتى ظهرت فى الأفق بعض الاتجـاهات الانهزامية تشكك فى كل شىء ، وتهون من قدرات هذا الشعب العظيم ..

مصر خلف قواتها :

واسمحوا لى ان أذكركم فى هذا المقام أننى قلت ونحن فى ليـل الهزيمة فى خطابى بمناسبة عيد أول مايو ١٩٧١ :

« ان علينا أن نجعل من الهزيمة نقطة انطلاق لبناء دولة جديدة » .

ولم يكن قولى هذا ضربا من التعلل بالآمال ، ولكنه كان مبنيا على الايمان العميق بالشعب وصلابته وتفانيه وقدراته الخلاقة ، وعلى تقدير موضوعى لتجربتنا الثورية اقتنعنى انه بتصحيح مسار الثورة ، وتصفية سلبيات التجربة ، يمكن أن نبنى بناء شامخا .

وبنفس هذه الثقة ، وضـــد كل دعاوى الهزيمة ، وبتجاوز لكل التقديرات المتشائمة ، وباحساس عميق بالمسئولية أمام جماهير الشعب التى التفت من حولى ، وبالاشتراك مع أخى رئيس سوريا اتخذت قرارى بانهاء حالة اللاسلم واللاحرب ، واصدرت أوامرى للقوات المسلحة المصرية التى كانت تتلهف ، فاندفع الألوف من شباب الفلاحين والعمال والمثقفين يملأ الايمان قلوبهم ويحكم الفداء حركتهم .

وكان القتال المجيد الذى اثبت للعالم كله قدرة القيادة على التخطيط الممتاز والاعداد الدقيق ، وقدرة المقاتل المصرى على السيطرة على الأسلحة الحديثة واستخدامها الاستخدام الفعال جنبا الى جنب مع شجاعته النادرة .

وفى لحظات ، كانت مصر كلها خلف القوات المسلحة ، يتبارى كل ابنائها فى البذل والعطاء ، فى هبة تلقائية لم تترك فردا الا وجذبته . فاجأ هذا الشعب ـ الذى اشتهر بحبه للسلام ـ الأصدقاء والأعداء بقدرته الرائعة على أن يتحول فى لحظات الى شعب مقاتل ، لا يتردد أمام تضحية ، ولا يجفل امام خطر ، ويتبنى كله شـــعار القوات المسلحة : « النصر او الشهادة » .

ولذلك فانه من الخطـــأ الجسيم أن نقول عن العبور الظافر أنه معجزة ، لأن المعجزة بطبيعتها امر خارق يفوق الطــاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وانما يجب ان ننظر اليه على أنه ذروة للعمل الوطنى ، علينا أن نتمثل دروسه ، لكي نتخذه نمطا ترتفع الى مستواه كل جوانب العمل الوطني .

ان أعظم تقدير لأيام القتال المجيدة ليس التغنى بها ، وانما استلهام معانيها لكى نحرز فى مختلف مجالات العمل الوطنى ما احرزنا من نجـاح فى العمل العسكرى .

ليكن شعارنا دائما انه ما دمنا قد استطعنا فى ساحة القتال ، فانه يجب أن نستطيع بنفس المستوى في كل مجال .

ان المقاتلين هم صفوة من ابناء هذا الشعب . وما صنعوه فى مواجهة العدو الشرس الغــادر المدجج بالسلاح يستطيع ابناء هــذا الشعب أن يصنعوه فى مواقع الانتــاج والخدمات ، لنقهر التخلف ونتخلص من السلبيات الموروثة ونؤكد بالانجاز ان مصر اكتوبر هى مصر المستقبل .

ان النصر فى أكتوبر لم يكن مصــادفة ، ولم يحدث فى غفلة من الزمان كما يريد العدو ان يوحى ، وانما هو ثمرة عوامل كثيرة واصيلة تجعله أمرا واردا وطبيعيا وليس حدثا فريدا .

من ورقة أكتوبر
المقدمة من الرئيس
أنـــور السادات

فهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٨٨٨ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5924 - 7



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل . ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق
وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العا
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى
وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر ا
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سـ



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة